إكرام الأرملة دفنها

مجموعة قصصية

أيمن جبر

النخبة

إكرام الأرملة دفنها

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع
1442 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 21919 / 2020
الترقيم الدولي: 1 – 630 – 838 – 977 – 978

الكتاب: إكرام الأرملة دفنها
المؤلف: أيمن جبر

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر
23 شارع عبدالخالق ثروت – القاهرة – الدور الثالث
تليفون: 20223926449+
201096124252+
البريد الإلكتروني: info@elnokhbapublish.com
زورونا على موقعنا: elnokhbapublish.com
الفيسبوك: النخبة للطباعة والنشر والأبحاث

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع فى مصر

إكرام الأرملة دفنها

مجموعة قصصية

أيمن جبر

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع

2021

إهـــداء

إلى أمي التي تعلمت منها أن الأنيس هو الله؛ فلم أشعر بالملل وحدي قط...

إلى زوجتي التي كانت هي الضمير المرهف الذي يمر من خلاله كل كلماتي...

إلى أخي الأكبر الذي لولاه لما قرأت أبدًا ولسلكت طريقًا آخر.

قبل أن تقرأ...

عندما تكون في وسط المجتمع لا بد أن تحكم عليه بالتنافر والتناقض والخِلاف.

وعندما ترتفع وتنظر إليه من أعلى تكتشف أنه متشابه لدرجة تكاد تصل للتطابق!

لأن أغلب ردود الأفعال والمفاهيم والوسائل والأفكار متشابهة.

وهي ظاهرة مرضية.

في جهاز الكمبيوتر هناك لوحة المفاتيح.

الضغط على أزرار سوف يؤدي لأفعال مثل؛

«نسخ، قص، مسح .... الخ».

وفي الجهاز المجتمعي وصل هذا التشابه الوظيفي لتلك الدرجة!

فالأفكار والوسائل والطرق والمفاهيم والعادات أصبحوا مثل أزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر.

في خط الإنتاج في المصنع ترى الدجاج يسير على خطة؛ تبدأ بالذبح وتنتهي بالتعبئة والتجميد؛ ثم يقوم التسويق بمهمة وصولها للمستهلك سواء جملة أو تجزئة.

لو مُنحت الطيور العقل ورأت ما يحدث في خط الإنتاج؛ لفهمت ما يحدث وهربت من مكانها.

ونحن لدينا العقل لنرى كل مسارات المجتمع البشري التي نسلكها في حياتنا؛ «التعليم، الدين، التربية، المفاهيم، العيب، الصح، الخطأ، المعروف، المنكر»

لكل هذه المسارات خطوط إنتاج أو خطوط قضبان يسير عليها أفراد المجتمع.

المجتمع بأفراده في العصر الحديث أصبح يسير على قضبان؛ ولهذا، أصبح محدودًا في مساراته وخياراته.

متى نسير على الأرض؟

فالأرض غنية بملايين المسارات؛ بينما القضبان سجينة مساراتها المحدودة.

لا بد من أفراد يمتلكون الوعي والشجاعة لطَرق مسالك مختلفة؛ واستخدام أدوات أخرى وإبداع أفكار جديدة.

فطالما نحن لسنا بخير؛ فلا بد من التغيير!

لا بد من الخروج من حظيرة الدواجن إلى العالم الواسع.

في هذه المجموعة القصصية شخصيات؛ لم يفعلوا مثل الناس.

المؤلف

* * *

إكرام الأرملة... دفنها

انطلق نقاش صاخب بيني وبين أخي وأختي، يضغطون عليَّ بقوة كي أوافق على زواج أمي الأرملة التي جاوزت الأربعين من عمرها، وأنا أرفض بعناد وتحامل، حُجتهم أن جَميعهم متزوجون ولهم حياتهم، لم يتبق إلا أنا التي سوف أُزَفُّ قريبا، ستكون أمي وحيدة ومن حقها أن تقتنص فرصة الزواج، هو أرمل طيب السيرة، ونعرف عنه ما يجعلنا نطمئن إلى أنه سوف يَصونها.

لم أكتف بالرفض، أهنتها أمام الجميع، فما الذي يجعلها تتزوج ثانية!، هل ما زالت تشتاق للرجال!، لماذا لا تظل وفيَّة لذكرى أبي!، لماذا تجلب لنا الإحراج والتعرض لألسنة الناس!، تلك الزيجة سوف يستنكرها جميع من نعرف. وتملكتني طاقة شريرة جعلتني لا أتورع عن جرح وإهانة وقهر أمي.

قمت بإطلاق حملة في العائلة كلها لمعارضة الزواج، ثم اتصلت بالرجل المتقدم إليها وأهنته، حَرَّضت أبناءه ضده، طلبت منهم في سلوك صبياني أن يُبعدوا أباهم عن أمي؛ وإلا

سوف أطاردهم جميعا في مقار عملهم وبيوتهم وأفضحهم، عرفوا من عنادي وشراستي أنني لن أتوقف عن مقاومة الزواج، سَحب الرجل عَرْضَه وآثر السلامة.

استَسْلَمت أمي لقدرها، رَضَخَت لعنادي وأنانيتي، وبعد شهور قليلة تم زفافي.

تبادلنا جميعًا زيارة أمي بكثافة، وأكثرنا من الإلحاح عليها بزيارتنا، لم يُفتح الموضوع ثانية، ولكنه ظل حاجزًا بيني وبينها.

وقع علينا الخبر كالصاعقة، أمي تلتقي برجل في الخفاء، زلزال عنيف طاح بعقولنا جميعا، شبح الفضيحة والبلوى تجسَّد أمامنا، نشب صدام عنيف بيننا وبين أمي، اعترفت بزواجها عُرفيا من رجل لديه ظروف خاصة، زوجته مريضة وله أبناء، تزوجا عُرفيا وأسس لها مَسْكنًا يلتقيان فيه، منحهما الزواج اختلاس وقت من العمر يعوضهما عما نقص من حياتهما، يتبادلان الحياة الزوجية الطبيعية دون توتر. عَبَّرت عن ذلك بأنه «زواج لا يؤذي أحدًا».

ضغطنا عليهما بقوة وقسوة، لابد أن يُسجل هذا الزواج رسميا، لم يكن الأمر يسيرًا على زوجها، ليس في مقدرته

مواجهة امرأته وأولاده، لم أمهلهما الوقت للتفكير، فعلتها ثانية، وَشَيْت بهما إلى أبنائه وزوجته المريضة، ها أنا ثانية أفرض إرادتي على أمي، كان وقتًا عصيبًا كئيبًا، انتهى بأن طلَّقها أمامنا ومزَّق ورقة الزواج العرفي.

عقب الطلاق صرخت في وجوهنا: «ما زلت بشرًا مثلكم، كلكم يَنْعم بمن يهتم به ويُؤنِسه، لقد غدر أباكم بي عندما تركني وحيدة، كم أتمنى لو أنني التي مت؛ وعندها كان سيتزوج ولن تستطيعوا قهره مثلما قهرتموني، سامحكم الله».

اتفقنا جميعًا على التناوب في استضافة أمنا، تعيش معنا وتأنس بأحفادها، كان لها مع كل بيت من بيوتنا قصة، فهي ضيف طارئ، ولكل بيت خصوصية وروتين يومي، لم ندخر جهدًا في محاولة إشعارها بالألفة التي أحيانا تكون مُصطنعة، وأحيانًا أخرى تَنْفلت هَنَّات من التبرم وضِيق الصدر من أي فرد من البيت المُضيف.

لم تنس لي أمي تصدري بالتدخل في حياتها وتحويل مسارها ومنعها من الزواج، كانت تبيت عند إخوتي أيامًا قليلة، ثم يأتي دوري في استضافتها، فتُطيل مكوثها عندي، تتعلل

بأنها تحب بيتي وابنتي، فأنا ابنتها الصغرى، آخر العنقود كما تقول، لا تمكث فترة محددة؛ بل تظل عندي حتى تَنفلت كلمة تذمر، شكوى، أو تأفف من زوجي، إن لم يحدث ما تنتظره؛ تترصد كلمة مني تتعمد فهمها خطأً؛ ثم تتغير ملامح وجهها وتنصرف متجهمَّة في صمت، تُغادر وقد سجَّلت موقفًا يُثبت أنني لم أتحملها كما ينبغي.

الغريب أنني عقب كل موقف تتصيده، لا ألمس في وجهها أو رَوحها أي مظهر للضيق يتملكها، أحس سرورًا خفيًا يكاد يخرج في شبه ابتسامة من جانب شفتيها، فقد نالت ما كانت ترجو من زيارتنا، لم يكن زوجي أبدًا فظًا معها، فقط كان مندهشًا من عدم المساواة في مُدَّة المبيت عند أبنائها.

تصادف أنه في يوم، طرأ علينا ظرف خاص جدا، من النوع الذي لا ينبغي لأحد خارج الأسرة أن يشهده، خَرجت من زوجي كلمات صريحة تحت تأثير ضغط الموقف، فكان جَرحًا وحَرجا لأمي، والمدهش أنها لم تُبد أي صدمة أو ألم لجرح كرامتها، أعطتنا ظهرها في برود ثم انصرفت، كانت تلك الحادثة هي المبرر الحاسم لرفضها المبيت خارج بيتها.

أصبحنا نزورها تباعًا، نحاول ملء الفراغ والوحدة التي تتعلل بها، لكن في كثير من الأحيان عندما يزورها أحدنا؛

كان يسبق الزيارة نِيَّةٌ مستترة في موعد أو ارتباط بعد الزيارة، فتكون الزيارة عاجلة وبلا طعم، سريعا أدركنا أن لا بد من حل جذري، وجدناه أخيرا في تدبير عمل تجاري لأمي تقوم بإدارته، وبالفعل انشغلت فيه واستراح الجميع. ولم نعرف؛ هل صمتت وسكنت لأن العمل شغلها وأعطى طعمًا لحياتها؟، أم أسكتها اليأس من جدوى معاودة الشكوى؟، أم هناك سبب لا نعرفه ولا نفهمه؟

مرت الأعوام ثم حدثت المأساة التي هزت كياني وعصفت بحياتي، مات زوجي وأنا في أوائل الثلاثين من العمر، حادث مُريع راح ضحيته زوجي وابنتي، نجوت أنا وابني الذي لم يتجاوز السادسة من العمر، بعد الشفاء من الجراح والصدمة العنيفة؛ سقطت في بئر الوحدة والحرمان الذي رميت أمي فيه من قبل دون رحمة.

نعم ابني معي، لكن ما فعلته بأمي زاد من رُعبي ويأسي، وضاعف من الصراع النفسي؛ أن انتقلت أمي عندي لتعينني في تربية ابني ولتكون حصنًا من كلام الناس، فالأرملة عُرضة للشائعات والقيل والقال، وها أنا قد حُكِمَ عليَّ بما حَكَمَ به القدر عليها، وأصبحتُ أشعر بما كانت تشعر به، الرغبة

في شريك للحياة، اكتشفت أن هذه الرغبة ليس لها علاقة بالشباب أو الشيخوخة، فطالما في الإنسان حياة لن تُغادره بشريته وأشواقه للأنيس وبقية عوامل تعلقه بالحياة الطبيعية.

تقدم لي رجل مناسب، مُطَلَّق وبلا أولاد، يريد أن نتشارك الحياة، رفضت، تكرر الطلب وأنا أرفض، ومع كل رفض أشعر بألم من يَستنزف فُرَصه التي قد لا تعود، أكره الوحدة ولا أطيقها، هل استنزفت فُرصتي في الأنيس وشريك الحياة مرة واحدة كما حَكَمْت من قبل على أمي؟ إن الحاجة لأنيس فطرة مُلحَّة ما دامت تجري دماء في عروقي، لقد أغلقتُ زنزانتي على نفسي بموقفي القديم من أمي، كيف أقبل ما حَرَّمته عليها؟ ما موقفها مني إن قبلت الزواج ثانية؟، أنا عاجزة تماما، لا أستطيع أن أعيش حياة أمي ولا أجرؤ أن أفاتحها في هذا الأمر، فهو محسوم، لن تغفر لي ولن تعذرني.

استغرقْت في تلك الأفكار وأنا مسلوبة الوعي تماما عمن حولي، ومع دوران شريط الذكريات واستسلامي لمخاض الأفكار والهواجس، جاءني صوت من قريب يوقظني من كوابيس اليقظة.

تزوجيه ... لن ألومك.... أتظنين إنني لن أغفر لك... لقد غفرت لك منذ زمن بعيد، أكره أن تَخوضي ما خُضته يا بُنيَّتي، الوحدة شيء مَقيت، تزوجيه ولا تهتمي بي فأنا بخير، تزوجيه ولك الخيار في أن تعيشي معه وتتركي حفيدي لي أربيه، توقفي عن استنزاف فُرصك في حياة هانئة طبيعية.

ابنتي، إن الموت قدر، وكما يقولون الموت راحة، ولكن العُقدة تكمن فيمن فرض عليه أن يواصل الحياة، كيف يحيا؟

استمعت لها ولم أستطع الإجابة، ولكن بدأ الهدوء يتسرب إلى نفسي، رغم أن شعوري بالذنب ظل يكدِّر مشاعري. وفي اليوم التالي قلت لأمي، وكأني أحاول أن أمنحها أي تعويض: «إن تزوجتُ سوف نعيش معك أو تعيشي معنا»، قالت أمي: «ادعيه للغداء غدا»

في اليوم التالي، وقبل مجيء المتقدم لي بساعات، دَقَّ الباب وطلبت أمي مني أن أفتح للقادم، فتحتُ الباب ورأيت رجلا عجوزًا خُيل إليَّ أنني أعرفه من قبل، سأل عن أمي فناديت عليها، وقالت لي أمي: «سلمي على فلان، ونطقت اسمًا لا أنساه ولم تسمعه أذني منذ سنوات طويلة، يا إلهي إنه زوج أمي الذي طلقها بعد الزواج العُرفي!، سلَّمت عليه وأنا

مذهولة، ولكنه كان ودودا لي ولأمي، لم أفهم ولم أسأل، ولكني استرحت كثيرًا، وازدحمت التساؤلات والآمال في خاطري، هل ظل وفيًّا لها طوال تلك السنوات؟ هل من الممكن أن يكون الوقت مناسبًا لإصلاح ما أفسدته منذ عشر سنوات؟ هل يستجيب الله لي ويكون الحل السحري في زواجه من أمي؟ فلا بد أن زيارته في هذا الوقت بالذات هي مُقدمة لشيء ما!

أخذ يتحدث معي بينما أمي تجهز للغداء، قام بتعزيتي ومواساتي، وأخذ يُشجعني بأن الحياة لا تتوقف وأنها أقدار الله، وما علينا سوى التسليم ومواصلة الحياة.

آنستُ إليه كثيرًا وتملكني الهدوء، ثم استأذن للانصراف بدون مقدمات، رجوته بنبرة متوسلة ونادمة أن يبقى ليتغدى معنا، ولكنه اعتذر بلطف، ولم تُلِحَّ أمي عليه بالبقاء، وكأن هناك اتفاق بينهما على هذا السيناريو.

جاء الضيف ونال من أمي كل ترحيب، وتطرَّق الحديث بعد الغداء إلى موضوع الزواج، وافقت أمي ووعدته بأن يتم الإعلان قريبا عن خطبته لي.

كانت أمي تعلم أنني لن أهدأ حتى تُبدد ما بي من دهشة.

خاطبتني أمي بنبرة قوية، تختزن كل معاناتها في السنين الطويلة الماضية، نبرة توبيخية خرجت من فمٍ مبتسم: «وهل تظني أنني أدع طفلة مثلك تتحكم في حياتي!»، لقد أكرهنا الجميع على الطلاق، ورضخنا ظاهريا لكم، ولكنه طلاق المُكره، أسمعناكم ما أردتم سماعه، وقطَّعنا أمامكم الورقة التي كانت بيني وبينه، ولكن لم نكن لنسمح لكم أن تصادروا إرادتنا وتعطلوا حياتنا وتكدروها، لم نعترف بما حدث، كتب ورقة عرفية ثانية، وكان لدينا من العقل والحكمة أن نضبط مشاعرنا وسلوكنا.

في السنوات الأولى كان اللقاء قليلًا، ولكنه كان كافيا لنشعر بالأنس والقرب والود، كنت أتعمد بصبر وحكمة أن أُفسد مشروع مكوثي في بيوتكم بالتناوب، وحَرَصْتُ أن يحدث السبب المباشر لتوقف مَبيتي في بيوتكم؛ في بيتك أنت، لكي أغلق على فكرك أي محاولة للبحث ورائي، حتى عرضتم علي العمل التجاري الخاص الذي وفر لي مزيدًا من الأعذار لأمارس حياتي مع زوجي، ولتنشغلوا عني وأنتم مطمئنون أني لم أصبح عالة عليكم. كنت أسافر سنويًا للعمرة لأكثر من شهر، وكان هو الشهر المكتمل الذي نجتمع فيه معًا بدون رقابة أو حذر، توفيت زوجته المريضة

قبل وفاة زوجك بعام، وبعدها تزوجنا رسميًا دون إعلان، وهَممنا بأن نُعلمكم؛ لولا وفاة زوجك التي فاجأت الجميع، فصبرنا حتى تنضج الأقدار ونصل لتلك المرحلة.

تزوجي ابنتي واتركي لي ولدك، فسوف يعيش معي ومع زوجي، ولا تفكري في الماضي، فما حدث قد حدث، وليبارك الله لك زواجك ويُعوضك عما حدث لك.

* * *

الثور... والثورة

احتشد الجمهور في المدرجات وهم يترقبون خروج المصارع الشهير الذي سوف يواجه أشرس الثيران، المتعة والإثارة المنتظرة بلا حدود، فالمصارع هو نجم النجوم عبر السنوات الأخيرة.

توسط المصارع والثور الساحة، هلل الجمهور وانطلقت أصوات الموسيقى الحماسية، ساد السكون وحُبست الأنفاس وثبتت أعين الجميع على الساحة، وفي رشاقة واستعراض بَسط المصارع يده بالراية الحمراء في مواجهة الثور، والجميع ينتظر بدء السيناريو المثير.

ووسط دهشة الجميع وقف الثور ساكنًا بلا حركة وبلا انفعال، والمصارع المتوتر يحاول أن يُضاعف الإثارة بالتلويح بالراية وهو يقترب من الثور، والثور لا يبالي بالراية ولا المصارع ولا هتاف الجمهور!، يزيد الحرج وينتشر الصمت والذهول بين الجمهور، فمجرد سكون الثور لدقائق أفسد عليهم كل شيء، وأنذر بتسرب الملل للجميع.

هل هذا الثور أعمى؟ مخدر؟

هل سيفسد عليهم حفلتهم؟

ولكن الثور لم يُخيب ظنهم ولم يَحرمهم من الإثارة، فلم تكن هذه خطته.

فجأة بدى وكأن الثور استيقظ لما حوله وانتبه لدوره، فتراجع خُطوة ثم تقدم في سرعة هائجة إلى الأمام، وأخيرا تنفس المصارع واطمئن وانتظر الثور وهو يتقدم إلى الراية، فإذا بالثور ينحني إلى المصارع فينطَحه في مقتل ويطيح به في الهواء؛ ثم يسقط المصارع طريحًا بلا حراك.

ارتبك الجميع وانتشر الهلع، وأسرع الفرسان بالتجمع أمام الثور وقاموا بقتله في الحال، مات الثور مبتسمًا، فقد انتقم وسخر من الجميع .. وأحبط الجميع .. وأعطى درسًا للجميع.

توقف العرض لأسابيع، وخاف الأثرياء الذين يتربحون من هذه العروض؛ أن يؤثر هذا الحادث على تعلق الجمهور بالمصارعة، فأقاموا عرضًا في نفس الساحة بثور آخر وفارس آخر شهير، وتكررت المأساة.

فمن الصعب التنبؤ بما في نَيَّة الثور حين يهيج وينطلق للأمام، هل سيتجه للراية أم للمصارع؟، والدروع التي يرتديها الفارس لا تُجدي مع قوة قرون الثور.

وهنا أدرك الناس أن تلك المصارعة التي استمرت مراسمها قرونا طويلة، تستند أساسا على الثور، نظرا إلى أنَّ رد الفعل الغريزي من الثور معروف ومضمون.

فهل أمتلك الثيران بعض الوعي وأدركوا الحيلة؟

وامتلأ الناس رعبًا لتخيل تطور هذا السيناريو، فهذا التمرد من الثيران يُنذر بمستقبل شديد الخطورة، فالثور ليس الحيوان الوحيد الذي يستغله الإنسان.

ماذا لو أدرك الجمل والخيل وبقية الحيوانات المُذللة أنها أقوى من الإنسان؟

ماذا لو تمردت الخرفان فامتنعت عن الطعام وفضَّلت الموت جوعًا على الموت ذَبحًا؟

ماذا لو امتنعت الحيوانات عن التكاثر حتى ترحم سلالتها من التسخير والذبح؟

ماذا لو أسرع الدجاج كلما باضت بيضة، بالتجمع لنقر البيضة وكسرها حتى لا تخرج دجاجًا أخر للذبح.

ماذا لو تمردت الحيوانات في السيرك؟

ماذا. وماذا. وماذا!!

ماذا لو نزع الله الغريزة التي هي فتيل الحياة؛ عن الحيوانات والطيور فتمردت على سيدها الإنسان؟

وما أكثر آيات التسخير في القرآن الكريم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]

فالحيوانات تُسخَّر للإنسان بالوهم، فتجهل قوتها وتستقلها؛ وفي نفس الوقت تُضخم من قوة الإنسان.

كذلك الإنسان يُسَخَّر لغيره بالوهم، فيجهل نقاط القوة في نفسه ويستهين بها ولا يستخدمها، وفي نفس الوقت يُضخم قوة الآخر ويضاعف منها ويخضع لها ويذل.

توقف نشاط المصارعة زمنًا لعدم توفر المصارع الذي يغامر بنفسه، وأسقط في أيدي الناس.

وفي ليلة نام فيها الرجل الطيب «عبد الرحيم» متوضئا كعادته، ثم رأى في منامه ثورًا يمشي بين الناس ويتكلم بكلام لا يصل إلى سمعه، فهرع إليه مذعورًا، وسأله: «هل أنت من علامات القيامة؟»

«هل أنت الدابة التي سيخرجها الله لتكلم الناس؟»

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82]

خاطبه الثور وقال: لا.. لست أنا، ولكن الله أراد مني أن أوصل رسالة لهؤلاء البشر الذين لا يفقهون، فأغلب الناس يندفعون استجابًة لراية يلوّحها الأشرار لهم، فينطلقون يمينًا ويسارًا إلى حتفهم وبؤسهم، فأقول لهم أنا حيوان بلا عقل، ولي العذر عندما تثيرني راية فأتبعها إلى حتفي، فما عذركم يا بني آدم؟، أخبرهم أن الثور سيعود إلى غريزته وسيُنزع منه الوعي ثانية، فماذا ستفعلون أنتم بوعيكم المعطل؟

صحا الشيخ من نومه وقد حفظ الرؤيا وفهمها، وأعلن في الناس ما سمع، ورغم ضعف إيمان الناس؛ إلا أنهم اختبروا

الأمر فوجدوا الثور يعود لسابق عهده، ونشطت المصارعة من جديد وعاد الناس أيضا لسابق عهدهم.

وظل الشيخ «عبد الرحيم» يقول في الناس ويذكرهم، ولكن الوعي عزيز.

* * *

السجين النبيل

في أول زيارة للسجن بعد الحكم النهائي على «أحمد»، كان في انتظاره والده، وأخاه، وزوجته، وطفله الرضيع.

بعد أن فرغ الأب والأخ من العناق وتبادل كلمات التعاطف والمواساة، تركاه مع زوجته وطفله وانتحيا جانبًا. نظر «أحمد» إلى وجهها الشاحب والذي لم يذق طعم النوم، وإلى عينها التي انتفخت واحمرت من البكاء المتواصل، ابتسم متكلفًا ونظر إليها بارتباك وهو يضم طفله بحنان وشوق، ثم رده إليها ودعاها للجلوس على الأرض بجانبه.

من أين أتيت بتلك القسوة المضاعفة؟ ألم يكن يكفي أن أتحمل الحكم عليك عشر سنوات، ثم تُطْلِقَ في وجهي قذيفَة أخرى فتُطلقني؟

= وهل كنت تتخيلي حبيبتي أنني أقدر على أن أظلمك أو أن أقسو عليك؟ وهل أصبح لدي طاقةً للقسوة بعد كل ما حدث؟

لماذا طلقتني؟

= الحكيم من أتعظ بتجارب غيره، وما أنا إلا فرد في طابور من ملايين السجناء الذين سبقوني ووقعوا في هذا الفخ، لا أريد أن أسقط مثلهم في أخطائهم وتُنسيني مأساتي الأبرياء الذين عَلقوا بي، لن أكون أنانيا.

لا أفهمك، ما علاقة هذا بطلاقك لي!

= أنت تعرفين أن الحكم ليس فقط بعشر سنوات، فالسنتان الماضيتان حتى صدور الحكم؛ لم يتم احتسابهما، والحكم بلا تخفيف، فلا يوجد أمل في الخروج في نصف المدة لحسن السير والسلوك، والسنة تُحسب اثنى عشر شهرًا؛ وليس تسعة شهور كما في السجون المدنية، وبهذا لو خرجت حيا فسأخرج بعد فراقي عنك اثني عشر عاما!! هل تستطيعي تخيل ما بداخل تلك السنين من معاناة وحرمان وغم وألم؟

هل يمكن أن أخرج حيًا بعد هذا النفق الطويل؟ وهل سأخرج كما أنا؟ وهل سأجدك كما أنت؟ وهل يتبقى منا شيء؟ عشرات المتغيرات من الممكن أن تحدث، فلتحدث ونحن بلا رباط، فما ذنبك أن أظل متشبثًا بيدك وتغرقين معي!

ولكنه قدر الله، فلماذا تقاومه! سأنتظرك.

= حبيبتي، لقد حَكم القاضي عليَّ أن أستقل قطارا لرحلة العذاب والعجز والحبس، ولم يُولي انتباها إلى طفل وزوجة مرتبطان بي، لو أراد العدل والحِكمة لكان قرار الطلاق هو الذي يُصدره وليس أنا.

ولكنه ليس من حقه ولا سلطته!

= حبيبتي، لو انطلق القطار وأنت معي؛ سوف تعيشي زهرة عمرك في الشقاء، ستعيشين مأساة تُكدر عليك الدنيا، ستكون السنوات القادمة سلسلة من البكاء والأحلام اليائسة وزيارات متوالية لا تتوقف عن تجديد الأحزان والحسرات، ستكونين متألمة في كل حال، ولهذا كان لا بد من أن أؤلمك مرة واحدة وبعدها لا ألم، لأني سأغادر بقطاري وحدي وأبتعد؛ بينما تستمري في حياتك حرَّة أنت وولدي.

وهل تتخيل أنني سأقبل قرارك! سوف أنتظرك.

= دعينا نترك هذا للمستقبل.

هل تترك شمس قلبك وظِله؟

ارتعش ثم اطرق رأسه ليخفي ألما عميقا.

لقد كدت أنسى اسمي لكثرة ندائك لي «شمس»، وسمعنا معًا الأغنية آلاف المرات وأنت تنظر إليَّ في غرام، وأنا لا أفلح في تحمُّل نظراتك لي، فأخفض عيني خجلا! هل يصدق الناس بعد أن علموا قصة حبنا وحسدونا عليها؛ أنك تطلقني؟

= لو فهموا ما هو الحب لفهموا السر وعذروني.

إنني أتألم بما فوق الطاقة، ارحمني وتراجع عن قرارك.

تراجع حبيبي عن قرارك! .. تراجع!

= هل تعلمين أن هذا القرار سيجعل حياتي في السجن مُحتملة؛ لأني سأتولى أمر نفسي وحدها؟ لن يكون سجنًا مضاعفًا، هل تتخيلي أنَّ أصعب ما في السجن هو تفكيري في آلامك ومُعاناتك، أنتِ لا ذنب لك، ولا حكمة من سجنك معي معنويا، ستمر الأيام وستتفرغين لطفلنا، وكل ما أطلبه منك حين تتزوجي أن يكون أبا عطوفا لابني؛ وإن تَعسَّر هذا فاستعيني بأبي وأمي.

ماذا تقول؟ هل سترسم لي حياةً مع غيرك؟

= فقط تذكري كلامي واحفظيه ولن نستعجل الأيام، فأنا لم أقل لك هذا مستعجلًا إلا لأني لن أراك كثيرا في المستقبل.

ومن يمنعني من زيارتك؟

ابتسم وهز كتفه وأبدى قلة الحيلة.

- أستطيع التحمل فلماذا تتسرع؟

= أعرف أنك ستتحملين وستُخلصين لي، ولكن لن أجعلك تتعرضي لتلك المِحنة، لقد حررتك ... حبيبتي ... السجن موت ... سأموت عنك وعن العالم عشر سنوات ... وهل تُدفن الزوجة مع الزوج إن سبقها للموت؟ ... هل أدخلك معي في قبري؟ ... حين يموت الزوج؛ تصبح الزوجة أرملة، ولا كبير فرق بين الأرملة والمطلقة. وحين يموت الزوج؛ تذهب الزوجة أحيانا لتقرأ له الفاتحة على قبره، حسنًا، عليك بقراءة الفاتحة كلما خطرت ببالك وامنحيني دعاءَك.

ولكنك بعد عشر سنوات ستعود للحياة!

= هل تصلح الكعكة حين تنزع منها طبقة الكِريمة والفاكهة التي تُزينها!، هذه السنوات هي زهرة الشباب والحياة، وهي كِريمة كعكة حياتنا، وقد نزعت مني ولن أسمح أن تنزع منك

ومن ابني، من يضمن الحياة يوما واحدا؟ نحن نتصرف فيما يظهر لنا، والأقدار حَسمت أمرها وسوف تُرينا قصتنا في الدنيا.

ساد بينهما صمت حائر للحظات، ثم قال:

= هل الولد بصحة جيدة؟

أعلم أنني لن أستسلم لجنونك، سأظل زوجتك بدون تلك الورقة، سأظل أزورك وأنتظرك وأعد الأيام حتى يجتمع شملنا، وتفرح بولدك ونهنأ ببقية حياتنا.

احمرت عيناه وتضخمت وهو يتساءل بصوت مختنق؛

= هل الولد بصحة جيدة؟

أتشفق عَلَيَّ أن أتحمل سجنك وبعدك، ولا تشفق أن تلقي بي وابنك في معترك الحياة دون نقطة ارتكاز، أنت نقطة ارتكازنا، لن أقدر وحدي، يجب أن تُمحَى كل ذاكرتي كي أصلح لحياة أخرى، كيف تطيب حياة لست فيها؟ كيف بعد أن ذُقت النبل والحب منك أن أرضى بغيرك.

وانهارت في البكاء .. وانهار معها وهما يحتضنان معا الطفل... ونظر الجميع إليهما، وهرع الأب والأخ في جزع إليهما، وبدون سؤال انهمر الجميع في البكاء.

وأوشكت الزيارة على الانتهاء ولم يَسكن قلبها ولم تفلح في إقناعه.

نظرت إليه وكلها أمل في يتراجع، ولم تسعفها طاقتها المستنزفة لتتكلم.

فاستجمع هو كل طاقته وسألها:

= هل الولد بصحة جيدة؟

نعم، هو يأكل جيدًا وبصحة ولله الحمد.

مرت لحظات صمت طويلة وهي تنظر إليه متوسلة، بينما هو ينظر لولده.

نادى الحارس أن انتهت الزيارة.

= حبيبتي .. وداعًا.

* * *

الفـــخ

في البرنامج التليفزيوني الجماهيري في إحدى الدول العربية؛ استضافت مقدمة البرنامج المفكرَ الشهير، يشتهر هذا البرنامج بالصراحة والمباشرة وعدم المجاملة للضيوف، علاوة على ذلك يتعمد إحراجهم ووضعهم في فِخاخ حادة، فالأسئلة مفاجأة وبلا حدود، والبرنامج كله رحلة إلى المجهول، فلا قُدرة على الاستمرار في التصنُّع أو الكذب أو التظاهر برباطة الجأش، ولهذا أغلب الضيوف يمتنعون عن المشاركة في هذا البرنامج؛ إلا الواثق من نفسه وهم قليلون، أو بعض الضيوف الذين ينشدون مزيدًا من الشهرة، أو الذين يطمعون في استعادتها بعد أن خفتت الأضواء عليهم، فيفوزوا بإثارة الجدل الجماهيري حولهم.

جلست مقدمة البرنامج على مقعد في مواجهته، وفي الصالة مجموعة من الشباب، مهمتهم التصفيق والتشجيع وتوجيه بعض الأسئلة إلى الضيف، وفي الخلف فِرقة موسيقية تقوم بإحداث نغمات حماسية أو تفاعلية حسب الموقف الحاصل.

قام الضيف بالإجابة عن بعض الأسئلة التي تُظهر مدى تفتحه الفكري وتقديره للحرية كقيمة مطلقة، وإيمانه بأنها قبل كل شيء، لأنها المناخ الذي يُتيح للإنسان اختيار عقيدته وممارسة عبادته دون ضغط أو نفاق، ثم عرج على إيمانه بالتسامح والتعددية الدينية والحرية وبقية القيم الحديثة.

وفي ختام كلامه، قال: «لا يعنيني أن أقنع أحدًا بعقيدتي، فقط أعرِضها، ولا يفرحني أو يحزنني أن يتفق معي أو يعارضني»، وأخذ يتفاخر بأنه ليس مُقلِّدًا، وأنه قام بمراجعة كل أفكاره، وأن هذه المراجعة زادته إيمانًا بالإسلام، وأخذ يُعدِّد بعض الحُجج التي زادت من إيمانه.

وأثناء اندماجه في الحديث، جاء اتصال خارجي من أحد المشاهدين.

المتصل: معك «جورج» من لبنان، وأنا من القارئين لكتبك، ومن المُعجبين بطريقتك في التفكير، ولقد تأثرت بتلك الحُجج التي ذكرتها، وأسرني المنطق في كلامك، وإني أعلن أنني سوف أتحول إلى الإسلام، ولك الفضل في هدايتي، «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله».

انفجر الجمهور في الهتاف الحماسي، وانفعل الموسيقيون فعزفوا موسيقى دينية تملأ المكان جلالا وإيمانًا، وأطال الموسيقيون والجمهور في الاحتفال بالحدث.

ظل الضيف ساكنًا حتى هدأ الجميع، ثم سأل معدة البرنامج عن المتصل، هل لا يزال على الخط؟

فأجابت: نعم هو يسمعنا.

فقال له مخاطبًا: حسنًا يا جورج، أنت تقول أنك معجب بي وتقرأ لي، ولهذا لا بد أن أكون أمينًا معك، فهل تسمح لي بأن أسألك!

جورج: نعم بكل سرور.

المفكر: هل قرارك صدر نتيجة كلامي الذي سمعته مني الآن؟

جورج: نعم، كلامك مقنع ومنطقي وتسبب في زلزلة أفكاري

المفكر: إذاً أسمع مني ما سأقول وفكر فيه جيدا.

جورج: كلي آذان صاغية.

المفكر: أولًا؛ لا بد أن تعرف أن أفكاري وقناعاتي لم يصدرا مني إلا بعد رحلة طويلة من البحث والحَفر في الأفكار واختبارها لمعرفة أصالتها، والعقيدة لا يتخلى عنها الإنسان لمجرد سماع كلمات مُقْنعة، العقيدة التي نَرثها؛ تسري في الدماء وتتخلل كل الوجدان، ولهذا من ينخلع عنها لا بد أن يخوض تلك الرحلة التي هي خطوات متتالية وأزمنة متتابعة، فما تم غَرسه في الأعماق لا بد من معالجته حتى يخرج دون دماء وألم، هل فهمت تلك الكلمات؟

جورج: نعم.

المفكر: ثانيًا؛ من يسمع كلمات قليلة مثل كلماتي ثم يُغيِّر عقيدته، يعش حالة من الخِفَّة ولذلك يسهل عليه إن سمع كلمات أخرى مختلفة وبها منطق؛ أن يعود لعقيدته الأولى أو ينحرف لعقيدة ثالثة، ولهذا فمن هَلَّل لك مُرحبًا لسماع قرارك هم الذين سوف يهاجموك ويتهموك حين تعود عن قرارك، ولهذا السبب أنصحك أنت ومن يغير عقيدته؛ أن يتريَّث حتى يوقن أنه سوف يُصر عليها، ثم بعد ذلك هو حر في إعلان قراره أم كتمانه، هل فهمتني يا جورج؟

جورج: نعم أستاذ.

المفكر: ثالثا؛ نحن في مجتمع شديد التخلف، يتعامل المسلم والمسيحي مع قضية انتقال الآخر بنفسية الأهلي والزمالك، ليس المبدأ هو حرية الاعتقاد، بل المبدأ هو مسار الانتقال، فحين ينتقل الآخر لي فهي حرية الاعتقاد والخضوع لقوة الحجة، وحين ينتقل إلى الدين الآخر فهي الرِدَّة والتغرير والفِتنة في الدين.

ولهذا فإعلانك السريع ليس مناسبًا، وسيُثير فتنة وسيؤثِّر على علاقاتك بأسرتك وأهلك ومجتمعك، وكان الأولى أن تتولى معالجة هذه المشاكل قبل الإعلان، ليس من الحكمة أن تَفْتن أسرتك بتلك المفاجأة، لا بد من التدرج والتمهيد، وإلا سيحدث أثر حاد على الجميع وخاصة الأمن المجتمعي المتخلف في أفراده، لو كنت في أوروبا لكان الأمر سهلا؛ ولكن هنا لا بد أن نغير العقلية أولا، أو على الأقل نُراعي ضعفها. هل فهمتني؟

جورج: نعم أستاذ.

ثم توجه المفكر إلى الجمهور أمامه وقال:

نحن في مجتمعنا نتساهل ونتغاضى عمن يُلحد، وندعو له بالهداية ونعاشره بود وصفاء قلب، ولا نتخذ أي موقف

عدائي تجاهه، ولكن من يتحول إلى الإسلام أو المسيحية من الطرفين ينال عقابًا وحشيًا وشاملًا وتصبح قضية جماهيرية وطائفية بامتياز، ألا ترون هذا تناقضًا ونِفاقًا دينيا ومجتمعيا؟

أطرق الحضور.. ولم يُنبس أحدهم بكلمة.

المفكر: نحن نعرف الطريقة الشهيرة التي تسمى «رمش عينه اللي جرحني»، حيث يقوم مسلم أو مسيحي بالتعرض بوسامته لفتاة أو يستغل مسلم مشكلة زوجية لمسيحية تريد أن تتطلق من زوجها؛ ثم يحدث إغراء بتغيير الدين نتيجة العاطفة أو الحاجة للخلاص من المشكلة، ويصفق هذا الجانب فرحًا بالفوز ويهتاج الجانب الآخر تحت شعور الإهانة والخيانة، يجب أن نضبط مشاعرنا ونختبرها لكي تكون ردود أفعالنا صحيحًة.

هل فهمتموني؟

الغريب أنه لم يتلق سوى الصمت الحائر أو الممتلئ بالدهشة؟

فالسيناريو الذي فرضه المفكر على اللقاء، لم يكن يخطر بالبال، ولم يكن هناك تعليمات محددة للجمهور حيال هذا الخطاب المُفحِم منه، فالجمهور موظفون في البرنامج.

ساد صمت لدقائق نتيجة ارتباك الجميع، ثم خرج شاب من وراء الكواليس، وعرَّف نفسه قائلًا:

«أنا محمد، الذي كلمك على أنه جورج»!

وهنا قامت مقدمة البرنامج بالتصفيق لتكسر الصمت، وتَبِعها الجمهور في الوقوف والتصفيق للضيف الذي أفلت من المقلب الخطير.

خاطبته مقدمة البرنامج قائلة:

لقد كان الفخ هو اختبار «الانسجام بين قولك وفعلك»، فكلامك البارد والواثق عن الحرية، وخاصة حرية العقيدة، وادِّعائك الجمع بين الإيمان العميق والتسامح مع الآخر يصعب تصديقه في هذا الزمان المشبع بالتعصب والطائفية.

ونجاحك كان مفاجأة مذهلة، فقد كنا نتوقع أن يَغمرك مشاعر الفرح والفخر لتمكنك بكلمات قليلة من إقناع إنسان بتغيير دينه، وتوقعنا أن يؤثر فيك تهليل الجمهور والموسيقى المتكلِّفة، ولكن احتفاظك برِباط جأشك وإدارة هذا الحوار

بتلك السلسلة من الحُجج، دليل على متانة أفكارك وإيمانك بها، ولو انطلت عليك الحيلة لكان الموقف شديد الحرج لك أمام الكاميرا.

مع خالص التحية

❊ ❊ ❊

القهر

في أول يوم لي كمُعلِّم، سمعتهم جميعا يمْتدحون المدير كأهم شخصية في المدرسة، لكني استشعرت من كلامهم غمزًا ولمزًا ومعاني بين السطور، في لقائه؛ كان رقيقًا وحلو اللسان، لكني أحسست من نبرة كلامه أن حلاوة لسانه هي خليط من أشياء لزجة، تُطلق نظراتُه رسائل متناقضة، مثل من يتوعَّدك مبتسمًا أو من يَسبُّك وهو فاتح ذراعيه ليضمك في حنان.

جاءني أحد المدرسين يُعلِمَني بقوانين المدير الخاصة، نِسبة من الراتب تُعطى لوسيط بيننا، هذا مقابل التساهل في الحضور والانصراف والتغاضي عن التقصير في الشرح للطلبة. أجبته أنني لن أقصر في عملي وسألتزم بالمواعيد الرسمية للعمل. قال هذا لمصلحتك، كلنا نحتاج هذه التسهيلات كي نتمكن من الالتزام بالدروس الخاصة، كلنا يقصِّر في الشرح كي نُجبر الطلبة على اللجوء للدرس الخاص، الفترة الدراسية راحة لأبداننا المُنهكة وأعصابنا المستنزفة طوال النهار وحتى آخر الليل.

أجبته أنني بالفعل سوف أعطي دروسًا، ولكني سألتزم بمواعيدي وبالشرح بكل أمانة للطلاب، لست في حاجة لدفع تلك الإتاوة.

انخفض صوت الوسيط واتسعت عيناه قائلًا: هناك أمر آخر لم أذكره، أنت تحتاج لأن يَكفَّ عنك شرَّه، هذا ليس بالأمر الهين. فهمت ما يُلمح إليه، ولكني أصررت على موقفي.

في الصباح في أول حصة لي دخل المدير للتفتيش، قام بتقديمي للطلبة وتهنئتهم بفوزهم بمدرس ممتاز مثلي، ألقى على الطلبة بعض الأسئلة وتدرَّج فيها حتى فاجأهم بمسألة حسابية عويصة، لم أدر من أين أتى بها، ربما من كتب الألغاز الرياضية التي تتفنن في هذه الأسئلة، عندما عجز الطلبة عن حلها، تنحى جانبا وطلب منهم الإنصات لي وأنا أحل المسألة، وضحك وضحكوا وسال عَرقي غزيرًا واحمر وجهي، ولأول مرة أتجرع مرارة الشعور بالرغبة أن تنشق الأرض وتبتلعني.

كان من عادتي الحضور مبكرًا، وذات صباح كدت أن أتأخر، كنت أقف أمام البوابة قبل موعد إغلاقها بدقيقتين، فإذا بالمدير يأمر بإغلاقها ثم يختفي من المشهد الذي

تَصدَّره الحارس، اعترضت قائلا: «إنها أغلقت قبل الموعد»، وأريته ساعتي، لم يلتفت إليها وقال في استعلاء: «ساعتك تؤخر الوقت»؛ طلبت منه أن يُدخلني فلا يصح إيقافي بين التلاميذ هكذا، لم يرد، تركني والطلبة يتزايدون من حولي ويتزايد حرجي. جاء المدير بعد وقت يسير، حضوره كان كافيا لبلوغي قمة الشعور بالمهانة، وبَّخ الحارس وأنذره ألا يكررها، فلا يليق بالمعلم أن يُمنع من الدخول مثل الطلبة، أقسم لي بأغلظ الأيمان؛ أن هذا السلوك من الحارس بدون علمه، مررت من البوابة وقد نفذت الطعنة الثانية في قلب كرامتي، علمت فيما بعد أنه كافأ الحارس بكرم حاتمي.

تكررت محاولاته إهانتي دون أن يتصدر المشهد، هذا تلميذ يقدم شكوى ضدي؛ يفتري عليَّ بأنني أضغط عليه لنيل درس خاص، مدرس أخر يتودد لي ويتبسط في حديثه؛ ثم على حين غفلة مني يكشف أنيابه؛ ويشكوني في مذكرة رسمية، أحاطني تمامًا الشعور بالذل والقهر، غمرني الشك في كل شخص وكل شيء، أصبحت متوجسًا ومرتابًا فارتبَكَت ردود أفعالي وطاشت كلماتي بين الطلبة والمدرسين، أصبح النوم

عسيرًا، قادني الأرق إلى تقصير شديد في عملي وشذوذ في سلوكي، أصبحت أخرقًا أمام الجميع، زادت نقاط ضعفي وكثرت عثراتي.

تقدمت بطلبات للنقل، كان المدير سدًا منيعًا بعلاقاته أمام الموافقة على أن أفلت من قبضته، فهو يعلم أنني سوف أتحدث عنه في كل مكان بمجرد الخروج من دائرة سلطته، فحبسني تماما؛ لن يقبل إلا استسلامي الكامل.

ذهبت إلى صديقي المُقرَّب، أيقظته في وقت متأخر من الليل، قلت له: «جئت إليك وأنا كلي رعب من الانهيار، أوشك أن ارتكب غلطة عمري، لقد قمت بشراء «فِرفر» وهو سلاح ناري من طلقة واحدة يُصنع في الورش»، سوف أتربص به وأقتله سرًا لأشفي غليلي وأرتاح من هذا العذاب.

أنصت إليَّ صديقي مندهشًا، فلم يكن يعلم أن صديقه الذي عرفه منذ الطفولة بتدينه وميله للمسالمة؛ قد يصل به الأمر إلى تلك الدرجة من الانهيار، لكن القهر يُخرج الوحوش من الصدور.

قال لي: هوِّن على نفسك فلست وحدك، أطلب منك فقط أن تؤجل قرارك عدة أيام، لنفكر في عاقبته، ونحاول إيجاد بدائل قد تُغني عن هذا التهور.

استسلمت له، ثم مضينا عدة ليال متتالية معًا في النقاش.

بعد أيام ذهبت للمدرسة مبكرًا، توجهت لحجرة المدير الذي كان من عادته البكور ليحصي على المدرسين هفواتهم، الغرفة خالية إلا منه، دخلت عليه وأغلقت الباب، توجهت إليه مسرعًا، أخْرست المفاجأة المدير، اقتربتُ منه وقلت له: لقد قهرتني؛ لم تُقَدِّرَ عواقب غضبي، وكنت أنوي قتلك، لكني أكتفي مؤقتًا بهذا كعربون؛ عسى أن ترتدع. وصفعته صفعتين على وجهه الذي تجمد من الذهول؛ ثم انصرفت سريعًا مستغلًا وقع المفاجأة التي جعلته يتسمر في مكانه، حاول أن يستوعب ما حدث، فقد صَفعه شاب في عُمر أولاده دون شُهود، فماذا يفعل؟ إن أعلن ما حدث؛ فسوف تكون نُكته المدرسة، فالجميع يخشونه ويكرهونه، وانتشار تلك الحادثة يجعلها مثل حكايات «أبي زيد الهلالي»، سوف يُغنِّيها الطلبة على الرَبابة، وينال هذا من هيبته، ولن يخسر سواه، إذن ليكتم ما حدث، وليُغير معاملته مع هذا الشاب الذي لا يأمن ردود أفعاله.

مرت الأيام وتغير الحال واستررددت كرامتي، وفي نهاية العام حضر صديقي المقرَّب؛ صاحب ذلك الاقتراح العبقري، حفلة تكريمي بلقب «المدرس المثالي»، وكان السيد المدير هو من رشحني لهذا الشرف الكبير، والذي سلَّمني الوسام وهو يحتضنني في أبوة وحنان!

❊ ❊ ❊

المغتصبون

جلس الأستاذ «كريم» في غرفة المعيشة عقب تناول الغداء، حيث اعتاد أن يتوسط أبناءه في أنشطتهم المسائية، جلس على مكتبه يقرأ في كتاب مَعرفي، بينما زوجته على الأريكة تساعد الابنة الصغرى في المذاكرة، ولداه جالسان على المنضدة الكبيرة في وسط الغرفة، كل منهما منهمك في آداء ما عليهما من واجبات مدرسية.

أخرج «كريم» وجهه من بين صفحتي الكتاب، وأخذ يقلب النظر بين أسرته الصغيرة، فيشعر بامتلاء قلبه بالشكر لله والرضا عن نفسه، فما تلك البركة في أولاده وزوجته إلا نِتاج المال الحلال، فقد أمضى «كريم» ثلاثين عاما في التربية والتعليم، كان همه الأكبر أن يحفظ ضميره مستريحًا فلا يقبل ما يلوِّثه، ولا يمرر ما يجرحه أو يفسده، ولهذا يَنسب «كريم» بر أولاده له وتوفيقهم في الحياة؛ إلى هذا الحرص البالغ على الحلال وراحة الضمير.

تسلّم «كريم» في الإدارة التعليمية التي يعمل بها ترشيحًا من الوزارة، فنظرا لسيرته العطرة رُشِّحَ عضوا في لجنة عليا

لمكافحة الفساد، استبشر «كريم» وتفاءل لأنه سوف يشارك بفاعلية في تطهير البلد من الفاسدين.

هذه اللجنة تقوم بالإشراف على غرف الكونترول واللجان الخاصة بامتحان الذين لهم ظروف استثنائية.

بعد يومين من العمل الروتيني الطبيعي، جاءته الموظفة المسؤولة عن تنسيق أعمالهم، وعرضت عليه ظرفًا مغلقًا متضخمًا وسخيا، سألها عن مصدر هذا الظرف، فضحكت لتداري حرجها ثم قالت: «هي هدايا بريئة بدون غرض، يقدمها الأهالي ليُعَبِّروا لنا عن تفهمهم لمشاقنا في رعاية نزاهة العملية الرقابية».

وكي تُرَغِّبه وتُهوِّن الأمر عليه، قالت: «إن الجميع قَبِلَ الظرف ولم يتبق سواك».

قال لها «كريم» وهو متجمد الوجه وحريص على ألا يُطلق مشاعره في وجهها: «أقدم خالص شكري للأهالي الكرماء ولكني لا أرى أنني أستحق هذا الظرف لأني أقوم بواجبي وأتلقى مقابله راتبي» .

فوجئت السيدة بالرفض القاطع من «كريم» رغم محاولاتها المتكررة لحثِّه على إعادة التفكير، وأخبرته أنَّ هذا يحدث منذ سنوات وأنَّه لم يَرفض أحدٌ من قبل هذا الظرف.

ومع ذلك أصر «كريم» على الرفض، ولم يُظهر في كلامه ولا نظرته أي لوم لمن قَبِلَ الظرف من زملائه. استسلمت السيدة لتصميمه، ومنذ تلك اللحظة وحتى انتهاء عمل اللجنة، عُهِدَ إلى «كريم» بالمهام البريئة والبعيدة عن الشُبهة، ولم تتضرر اللجنة، فطالما قَبِلَ الجميع الظرف ما عدا «كريم»؛ فما زال في اللجنة أولاد حلال يمرروا الفساد؛ كما يمر السكين في قطعة الزبدة، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي يُدعى فيها كريم لتلك اللجنة.

انقلبت الدنيا ولم تقعد في وزارة التربية والتعليم، وصلت شكاوى كثيرة تشتكي من أن امتحانات الملحق الخاص بالثانوية العامة يتم بيعها علنًا في منطقة «شرق برنجان التعليمية»، لم يكن هناك خيار سوى أن يتم تشكيل لجنة تحقيق. ولا بد أن تكون من أنزه وأكفأ الشخصيات، وأمام الضغط الشعبي والهجوم الإعلامي الشرس، تشكلت اللجنة وتم اختيار «كريم» ضمن أعضاء تلك اللجنة، فشرط نزاهة

أعضاء اللجنة لم يكن بالإمكان تجاوزه، والضغوط لا قدرة على مقاومتها.

في ليلة تكليف «كريم» بالمهمة، وبعد العودة من العمل وأثناء تواجده في المنزل جاءه اتصال تليفوني من مصدر مجهول، لم يُعَرِّف نفسه ولم يَستهل كلامه بمقدمات، فقط تأكد أن الذي يتحدث إليه هو «كريم»... ثم قال:

أنصت لي يا مكافح الفساد، «هذه الامتحانات كلفتنا ملايين لا تستطيع عدها ولن نسمح لمثلك أن يُفسد الأمر علينا» «حافظ على أولادك» «وإلا!!»

ثم أغلق الهاتف في وجهه.

كان هذا الاتصال يمثل زلزالا «لكريم»، فالتهديد واضح واللهجة آمِرَة ومتوعدة، بل ومغموسة بالاحتقار والتعالي والثقة، ونحن في زمن ينزوي فيه الشرفاء ويتقدم المُتسلقون والانتهازيون، وقد قالها من قبل أكبر الرؤوس في مصر: «الفساد للركب»

حتى هذا الوصف أصبح متواضعًا كثيرًا أمام الواقع الحالي، فالفساد ربما طال الأنوف، بل وامتلأ الفم بالماء الوسخ.

تفكر «كريم» طويلًا، «من يضمن لي سلامة الأولاد؟» «من الذي أشتكي إليه ويضمن سلامتي وأسرتي؟»، وكان الجواب بديهيا، فالفساد موزع من أعلى لأسفل، وربما مَن يتعهد بحمايته يكون تحت سلطة فاسد، فلا يستطيع حمايته، وبهذا سوف يصل الأذى إلى أولاد «كريم»، ففوضى الفساد بلا خريطة تحدده والسرطان منتشر في كل الجسد.

لم يستطع «كريم» النوم ولم يجرؤ على مصارحة أي إنسان بالمكالمة ولم يبلغ الشرطة أو الوزارة.

في اليوم التالي تجمع أفراد اللجنة مبكرًا في المدرسة، تجهزوا للمغادرة إلى موقع المدارس التي ستجرى فيها الامتحانات ليتأكدوا من سلامة العملية، جلسوا منتظرين على مائدة الاجتماعات المستديرة، حاول «كريم» النظر في عيون زملائه، ربما أفشت الحيرة في عيون أحدهم عن تلقيها نفس التهديد الذي تلقاه «كريم»، لكن لم يشاهد سوى رؤوسًا منحنية تنظر لأسفل متحاشية التقاء العيون، وأجسادًا متوترة ومرهقة من الأرق، وأفواهًا مغلقة لا قدرة لها على إدارة حوار.

كأنهم جميعًا يستعجلون تقيؤ تلك المهمة سريعًا؛ ثم يعودوا سالمين لحياتهم التي كانت هادئة، وحينها سيعتبرون أن تلك اللجنة مجرد كابوس ثقيل يجب أن يتناسوه، وبذلك فَهِمَ «كريم» أنه ليس الوحيد الذي تلقى التهديد.

صعدوا الحافلة التي أقلتهم للمدارس التي بها لجان الامتحان.

قامت بإنزالهم تباعًا وعلى دفعات أمام كل مدرسة، نزل «كريم» مع زميلين في إحدى المدارس، شاهدوا إجابات الامتحان توزع بوقاحة علنًا خارج المدرسة والطلاب يتزاحمون حول الباعة هنا وهناك، لم ينظر «كريم» إلى زميليه ودخلوا المدرسة سريعًا وعلى رؤوسهم الطير. قاموا بتوصية القوة الأمنية المشددة، بأن تمنع أي تجاوز وأن تجلب لهم أي مخالفة، وأوصوا المراقبين بأن لا يتساهلوا أمام أي حالة غش من الطلاب؟

وقاموا بواجبهم «داخل المدرسة» كما ينبغي!، ومر اليوم بسلام في مدرستهم وفي بقية المدارس. اجتمعت اللجنة في نهاية اليوم واشتركت في كتابة التقرير الجماعي، كتبوا في شهادتهم «أنه لا يوجد بيع للامتحانات داخل المدرسة».. نعم.. داخل المدرسة!

فاللجنة لم تُبعث للجري في الشوارع وراء الأولاد!، انتهت المهمة؛ ولا لوم على الضمير فنصف الحقيقة التي كتبت في التقرير صادقة، والنصف الآخر الذي لم يكتب لن يسألهم أحد عنه، وأفلتت اللجنة من المهمة الانتحارية بسلام. عند تصحيح الأوراق، تم استدعاء نفس اللجنة لاستكمال المهمة الرقابية للإشراف على عملية التصحيح، تم استقبالهم بحفاوة ووضعت لهم مقاعد مريحة في غرفة مكيفة. في البداية جاءتهم الأوراق المطلوب التحقيق فيها، أوراق مكدسة في صناديق ومكتوب عليها: «شرق برنجان التعليمية»، تم التصحيح بتدقيق شديد، ولم ترصد اللجنة أي مظاهر لغش جماعي، فعادة يكون الغش الجماعي متمثلا في الإجابات المتطابقة في لجنة ما.

أثلج قلب أعضاء اللجنة فبذلك، لأنهم غير مجبرين على مخالفة ضميرهم، فقد أراحهم القدر من تلك المهمة الشاقة، فالإجابات طبيعية ومتفاوتة ومختلفة.

بعد ذلك جاءت أوراق للجنة أخرى مكتوب عليها «غرب برنجان التعليمية» فقاموا بتصحيحها، وهنا كانت المفاجأة، الإجابات متطابقة تماما، وكأنهم جميعا نقلوا الإجابة من

ورقة واحدة، هنا أدرك الحضور الحيلة، فالملصق الخاص بالمنطقتين قد تم تبديلهما.

فَهِمَ كل منهم ذلك بسرعة ولم يجرؤ أحدهم أن ينظر بجانبه، مرت اللحظات ثقيلة حتى تم الانتهاء من التصحيح، قامت اللجنة بكتابة التقرير النهائي وذكر فيه؛

«أنه لم يُلحظ أي آثار لغش جماعي بأوراق إجابة منطقة «شرق برنجان» التعليمية والتي هي موضوع الشكوى».

وقَّع الحضور جميعهم وكأنه اقتراع سري لا تتقابل الوجوه ولا العيون، فقط أصوات أشبه بالهمهمات تنتقل بينهم تطلب التوقيع، لم يكن الضمير مستريحًا تماما، ولكنهم لم يقصروا لأن التقرير صادق، أما بالنسبة للغش الجماعي الذي شهدوه؛ فلم يتقدم أحد بالشكوى بشأنه، ولهذا هم ليسوا مجبرين على فتح تلك الطاقة الساخنة من الفساد.

وكما قال الأب للفنان «سعيد صالح» في الفيلم العربي؛ «عش جبانًا تمت مستورًا».

غادر الجميع إلى بيوتهم بسلام وكلهم اطمئنان على أن بلدهم ما زالت بخير، وأن التعليم الذي هو مفتاح نهضة وانحطاط الأمم ما زال بخير... «كله زي الفل».

بينما يجلس «كريم» في غرفة المعيشة وعقب تناول الغداء، والأولاد حوله، سمع جرس الباب وقام أحد الأبناء لمعرفة من الذي جاء في مثل هذا الوقت الغير مناسب، نظر من العين السحرية فلم يجد أحدًا، ففتح الباب ونظر في كل مكان ولكن لم ير أحدًا، وعندما هم بغلق الباب ثانية لمح تحت قدمه ظرفًا فانحنى وأخذه وأعطاه لوالده.

فتح «كريم» الظرف، فوجد فيه رزمة مالية سخية جدا ومعها رسالة مكتوب فيها: «نحن لا نضيع أجر من أحسن عملا»، أصاب «كريم» هذا التعبير برجفة شديدة وقال في نفسه: «ما هذا الجبروت؟» ..يستشهدوا بآية قرآنية على لسان الله تعالى في مثل هذه الخطيئة!

كان الظرف في يد «كريم» كقطعة نار، لم يفكر كثيرًا وقام بتوزيعه على بعض الفقراء ثم عاد لبيته وهو يظن أنه قد وضع ختامًا أخيرًا لتلك المحنة القذرة التي أقحمه الأوغاد فيها دون استئذان وكادوا أن يُكدروا عليه حياته.

ومَنَّى نفسه أنه سوف يعود سليمًا طاهرًا قرير العين ومرتاح الضمير.

في المساء لم يستطع «كريم» النوم، هناك شيء غريب ينتاب مشاعره، هناك طرف مدبب ينغزه في ضميره بلا توقف، غُمست حياته ومشاعره بالكدر، وغمر كل شيء، الطعام صار كريهًا يراه وقد نُثر عليه من تراب الأرض، لم يعد له رغبة فيه؛ فذبل جسده ووهن، لم تعد نظرته إلى الأولاد في غرفة المعيشة وهم متفرقون حوله بهذا الصفاء والرضا، ولم يعد يراهم بعين الأمس، ينظر إليهم ويتخيل أن قد نثر على رؤوسهم ووجوههم من تراب الأرض، حتى حين ينظر لنفسه في المرآة يشاهد هذا التراب وقد ملأ رأسه وعفَّر وجهه وملأ حَلق لسانه.

وتذكر الشعر المنسوب إلى نبي الله «آدم عليه السلام» حين فقد هابيل:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

مرت الأيام ثقيلة على «كريم» وقد تكدر العيش والخاطر، هؤلاء القوم اغتصبوا حياته وأجبروه إلى امتحان شديد الصعوبة، أقحموه في هذا الامتحان الملوث بعد أن توهم أن العمر قارب على الانتهاء وأنه نجح في امتحانات الحياة.

أقحموه في امتحان وسؤال إجباري، وكأنه السؤال الأخير في برنامج (من يربح المليون)، إما يفقد الكل أو ينال الجائزة الكبرى، ولكن لم يكن لديه خيار الانسحاب من السباق.

أما وقد أصبحت الحياة مُتْرِبَة، وتعكر كل شيء فلا بد من الإجابة ثانية على السؤال، لا بد أن ينحرف عن القطيع، فيجيب الإجابة الصحيحة والدامية.

في الصباح، ذهب «كريم» إلى العمل وتوجه إلى الشؤون القانونية وطلب أن يحقق معه، وبعد أن قص القصة على المحقق أسرع المحقق بمشاورة رؤسائه ثم أخبره أن التحقيق سيؤجل للغد.

مرت الأيام والمحقق يُسَوِّف ولا يستجيب، والوسطاء يتناوبون على «كريم» بالتهديد والترغيب، ولكنه منح الجميع آذانا صماء فلم يعد يهمه العاقبة، سواء تضرر هو أو أولاده، لا يهم، لقد قرر أن يعبد الله وحده، والله هو الحق.

وفي أحد الأيام وأثناء ذهابه سيرًا على الأقدام للعمل، فوجئ بسيارة مسرعة تتجه إليه وتوشك أن تدهسه، ففزع وارتمى على الأرض في محاولة يائسة لتجنبها، ولكنها

ارتدت سريعًا عنه وأكملت مسيرها، ونظر إليها مذهولا وهي تختفي من أمامه بينما هو ممدد على الأرض.

ورغم التجربة المفزعة إلا أنه أطمأن قليلا إلى احتمال سلامته وسلامة أولاده، فتهديدهم كان فعَّالا قبل أن ينتهي الحدث ويتقدم بطلب التحقيق معه، لأنهم إن أصابوه بمكروه بعد أن علم الجميع بقصته، فسوف تكون مخاطرة كبيرة قد تمثل ضغطًا للوصول إليهم.

بعد ذلك توجه «كريم» لمركز الشرطة وقدم بلاغًا في نفسه، يتهمها بالخيانة، وتكرر الوضع ولم يتمكن من كتابة المحضر وبذلك فشلت العملية الانتحارية الثانية.

فجُرأة «كريم» أربكت الأوغاد الذين اغتصبوا ضميره. ولكن «كريم» يعلم أن الارتباك لن يستمر طويلا، وأنه بهذا العمل لن يمس السوء سواه، لأنه الشخص الذي يجب أن يصمت. ظل «كريم» بين الناس، يحكي لهم ما حدث وينشر قصة «اغتصاب ضميره» لكل الناس، وما زال يحكي حتى الآن. ولكنه كلما عاد سالما لبيته، وجد حياته القديمة تعود إليه وضميره الحي يرضى عنه، وأصبح ينظر لأسرته حوله وهي طاهرة ونقية وزال عنها ما كان يتوهم.

وحتى الآن لا نعرف إلى متى سيستمر في حكاياته وكيف ستنتهي قصته؟ هل سيُقتل؟ هل سيُتهم بالجنون ويودع في مصحة عقلية؟

هل سيختفي وراء الشمس؟

هل سيبرز من الناس من ينصره ويقاوم معه؟

الله أعلم.

ولكن «كريم» فعل الواجب وخالف القطيع؛

رغم أنهم بالملايين.

* * *

ترياق الفزع

في الفيلا الأنيقة بالمعادي؛ استيقظت «سلوى» من النوم متأخرًا، يُكبّل وعيها ومِزاجها صداع عنيف وثقيل، ظلت تحدّق في السقف طويلًا، لا تتحرك فيها جارحة، ترجع بذاكرتها للوراء حيث البداية، بداية الحدث الذي ألقى بها في بئر اليأس، البئر الذي لا أمل في الخروج منه ولا أمل في الحياة فيه، إنها النهاية بلا شك، نهايتها ونهاية ولدها الوحيد «ياسر».

تعيش «سلوى» مع ابنها الطالب بكلية الطب، الحياة جميلة وناعمة ومرفّهة، فالزوج يعمل في الخليج منذ سنوات طويلة، وعندما أنهى «ياسر» الثانوية العامة؛ كان لا بد من أن ترجع معه لمصر، تركت زوجها «سعيد» وحده.

في الخليج، كان الاختلاط قليلًا بالناس، وكانت الحياة محدودة. ولهذا كان الاستقرار بمصر قفزة هائلة بالنسبة ل «ياسر»؛ الذي حافظ على تفوقه وأخلاقه الساذجة وبراءته في أول عام دراسي ونجح بتقدير امتياز؛ ثم ظهرت عليه في العام الثاني تغيرات ملحوظة في حياته وسلوكه.

لم تنتبه الأم إلا حين هبط تقديره إلى «مقبول»، هنا انزعجت «سلوى» وربطت بين تغير سلوكه وتقديره الضعيف، لكن الشاب اعتذر لها ووعدها أن يُحسن في العام المقبل ويستعيد مستواه الطبيعي.

في العام الثالث حدث التغير الجذري الأسوأ، ظهرت له صُحبة مستهترة من زملائه، يُكثر التواجد معهم، أصبح يطالبها بمزيد من المال، ولم يطل الأمر طويلًا حتى اكتشف أنه مدمن!، يدمن أسوأ أنواع المخدرات، فالهيروين لا حل له ولا شفاء منه.

أصبح العراك الصاخب بينهما هو الروتين اليومي، صراخ وبكاء وانفعال، تطور للتلويح من «ياسر» بالعنف، ثم إلى عنف مباشر، والأم تُصر على أن يقبل الولد العلاج في مصحة وترفض إعطاءه المال.

وفي يوم فاجأ «ياسر» الأم بتغير مزاجه وسلوكه، أصبح يميل للهدوء واسترجاع الود والسلام معها، لم يعد يطلب مالًا بل أصبح يلتزم البيت مع أمه ويتسامر معها في المساء، يحتسيا المشروبات الساخنة معًا وهما يشاهدان التلفاز،

سعدت الأم باسترداد ولدها واحتفت به وأعطته من حنانها، واستراح قلبها أخيرًا.

وظنت أن الأزمة رحلت وأن الولد استرد وعيه وعقله. لم تدم سعادتها طويلًا، في بداية الأمر وجدت انشراحًا ونشوى مِزاجِية في تلك الجلسة المسائية ولم تنتبه لِعِلَّةِ هذا التغير، لكنها وجدت نفسها تزداد تعلقًا بتلك الجلسة وأصبحت تشعر بمتعة طاغية عقب تناول المشروب السحري.

في أحد الأيام؛ خرج «ياسر» وغاب طويلًا ثم رجع متأخرًا؛ فكادت أن تجن وهي تتألم؛ حتى جاء وشَرِبا وسهرا معًا، ولكن كان لتلك المتعة ثمنًا فادحًا في النهار؛ حين يُطبق على رأسها الصداع عقب الاستيقاظ وتشعر بوخز وإرهاق في جسدها. وظلت تلك الأعراض تشتد يوما بعد يوم، وفي الوقت المناسب الذي حدده «ياسر»؛ حين وجد أمه في أقصى درجة من الضعف والألم؛ صارحها بجريمته!

لم يعد يُجدي العتاب أو الغضب فالنتيجة محسومة ووقعت في الفخ وأصبح في البيت مُدمنان، لم تجد الأم سبيلًا سوى أن تخضع له وتعطيه المال كي يجلب لهما المخدرات،

والأيام تنفلت منها وهما قابعان في هذا البئر العميق، وكلما مرت الأيام شعرت باستنزاف فرصتهما في النجاة.

تذكَّرت «سلوى» كل هذا وهي تحدق في السقف، لم تكن تتخيل أن يتحول ما كانت تتمتع به من رغد العيش إلى هذا النكد الدائم، ولم تكن تتخيل أن يفعل بها ولدها الوحيد تلك الفعلة التي تتفوق على ما هو متعارف عليه من الخطايا.

لقد دار في رأسها كل الحلول الممكنة ولكن لا شفاء من هذا المرض، وكلما قرأت عنه تيقنت من إجماع غالب المتخصصين على نُدرة الناجين.

هَمّت أن تخبر زوجها ولكن ما جدوى ذلك؟، كيف تضمن أنه لن يفتك بالولد!، فمهما كانت مشاعره تجاه ولده؛ فالجريمة خطيرة والخسائر فادحة، لقد خسرا كل شيء. في أحد أيام الصيف وفي الطريق إلى أحد المنتجعات الصيفية، قاد «رامي» السيارة وبجانبه صديقه «ياسر»؛ وهما يُغَنِّيان في طرب ويُلوِّحَان بأيديهما في انفعال ويَمِيلان برأسهما في اندماج، «المزاج عالي والدماغ عامرة بالخيالات والهلوسات»، يُمَنِّيان أنفسهما بأيام من المرح

والمُجُون، خمر ونساء وأشياء أخرى، خاصة أن «ياسر» قد نال من أمه المقهورة المال السخي الذي يجعل من تلك العُطلة مُتعًا ولذات متوالية.

في أحد المنعطفات فوجئ «رامي» بفتاة تظهر فجأة أمام السيارة، حاول الانحراف عنها بفعل غريزي؛ ولكن في انحرافه دهسها، واستقرت السيارة على رمال الصحراء في جانب الطريق، لم يكن من السهل أن يسترد الفتيان رشدهما الغارق في الخدرِ والذهول، تخشَّبا في السيارة زمنًا يسيرًا، وفي خِضَمِّ هذا الذهول كان يتعارك في خاطرهما فكرتان؛ الهرب سريعًا قبل أن يراهما أحد؛ أو المسارعة إلى الفتاة ليحاولا إسعافها؛ فربما كان هناك أمل.

لم يحظيا بالوقت الكافي لحسم خيارهما؛ حيث أفاقا على شابين طوال القامة ومفتولي العضلات يعصرانهما بأيديهما القوية، ويخرجاهما من السيارة في خشونة وشراسة، دفعا بهما إلى حيث الفتاة التي كانت طريحة على الأرض وبجانبها شيخ عجوز يبكي بحُرقة وهو يضمها لصدره، يناديها أن تتمسك بالحياة وتعود إليه، والفتاة بين الحياة والموت، والموت لها أقرب.

رفع الشيخ رأسه إليهما، وتبدل انهياره العاطفي إلى وجه عابس وقاسٍ وممتلئ بالرغبة في الانتقام؛ وقال للشابين المُرعبين: «من؟»، فقال له أحدهما وهو يشير إلى «رامي»: «هذا الوغد هو سائق السيارة»، فأشار الشيخ إليه بإشارة مخيفة بيده، فطرحا «رامي» على الأرض ثم أطلقا على جسده عدة طلقات فأُرْدِيَّ قتيلا.

ولم يستطع «ياسر» أن يرفع بصره المشدود إلى جثة صديقه، والدماء الغزيرة تنبع من جسده، مكونة بِرْكة على الرمال. وغاب ياسر عن الوعي.

أفاق «ياسر» في غرفة مظلمة، يَجهل المكان والزمان، يشم رائحة كريهة، ربما هي حظيرة للماشية، سمع صوتًا حيوانيًا مخيفًا، يا إلهي؛ الصوت أشبه بزئير الأسد، تتصاعد المخاوف ويكاد يموت رعبا، فُتح الباب وأضاءت الغرفة ثم نظر من أسفل فرأى الشيخ وأولاده واقفين أمامه، ثم نظر رغمًا عنه جانبًا فشاهد أسدًا يفصله عنه قضبان حديدية.

ربما هو في سيرك؛ وربما هؤلاء يعملون به أو يملكونه، وقف الشيخ أمامه، نظر إليه بنظرة تمزج بين الحِنق والتوبيخ وقال: «أسمع يا ولد، ابنتي في غيبوبة، لا ندري مصيرها.

لكن اعلم أن ما سيصيبها سيصيبك، يد بيد، عين بعين، نَفس بنفس . لن ندخل عليك لنخبرك، سترتفع هذه القضبان آليا، وليرحمك الله...» ثم غادروا سريعا!

طار قلب «ياسر» من الرعب؛ فما ينتظره رهيب ومفزع، قال في نفسه: «الفتاة ربما في موت سريري وأنا أقرب إلى جوف الأسد، ربي لطفًا، إن كان الموت مصيري؛ لماذا لا يكون الآن وفورًا!، هل سأظل وجها لوجه مع هذا الخطر، أترقب اللحظة المشؤومة التي يُفتح فيها الباب بيننا!، هذا التربص سوف يقتلني في كل لحظة تمر بي في هذا الجحيم».

ظل هو والأسد وجهًا لوجه لأيام عديدة وطويلة، يدخل الطعام من فتحة أسفل الباب، لم يقربه حتى كاد أن يهلك، لم يشعر أن لديه جسد يضطره للطعام، تحول إلى كتلة رعب ملتهبة؛ وتلك الكتلة لا يغديها إلا مزيد من جنسه، رعب يتغذى ويتضخم على دوامة من الفزع والهاجس والخوف، وبصره مشدود للخطر يزأر ولا ينام إلا غَلَبَة، يسبح في كوابيس من الهول والألم، فالأسد معه في يقظته ومنامه، ولا يستيقظ إلا وهو على وشك أن يفترس بين أنيابه؛ فيفيق من النوم صارخًا ومرتجفًا.

بعد أيام أحس أنه أصبح شبحا، فلو كانت هناك مرآة لزاد فزعه، لأنه فقد كثيرا من وزنه، كان قد اعتاد العيش مع الفزع؛ فمد يده يتذوق الطعام بغرض تجنب الموت جوعًا، فأجبر نفسه على الطعام حِفظا للحياة.

بعد أيام لا يعرف عددها فُتح الباب فجأة وظهر نفس الأشخاص وتقدم العجوز ووقف أمامه بينما هو مستلقي على الأرض، نظر إليه من أسفل وهو مستسلم للقدر ويائس، ولكن وجه العجوز كان هادئا ومختلفا، قال العجوز بصوت مسالم: «اسمع يا ولد؛ أنت محظوظ، هناك تقدم وقد تنجو ابنتي، سوف أنقلك إلى غرفة أخرى، راجع نفسك واشكر ربك، قد رأيت ما فعلناه بصديقك» ثم انصرفوا سريعا وأغلقوا الباب دون أن يوصدوه، بعد وقت يسير فُتح الباب ثانية ودخل رجال لم يرهم من قبل، ربما عمّال بالمكان، تقدم اثنان وقاموا بتكتيفه، ثم غرزوا حقنة في جسده؛ ثم غاب عن الوعي.

أفاق «ياسر» ولا يدري كم مر من زمن، وجد نفسه ممددا على سرير في غرفة وملحق بها حمام وعلى جدرانها مرآة، وفي الوسط وضعت طاولة وكرسي وحيد، وفي أحد الأركان دولاب به بعض الثياب المرتبة.

لدهشته وجدها تناسب مقاسه النحيف تماما، لم يستحم منذ وقت طويل؛ فقد عزله الرعب والذهول عن الانتباه لما تراكم على جسده وثيابه من أوساخ، نظر لأول مرة في المرآة، كم كانت دهشته وهو يشاهد هذا المخلوق النحيف الأشبه بالشبح والذي يشبهه!، رأي نفسه تجسيدا للفوضى والقذارة فأسرع إلى الحمام.

نال لأول مرة منذ وقت طويل لحظات سعيدة تعيده إلى نفسه التي يتوق لها، لم يلبث في الحمام مثل تلك الساعات الطويلة والممتعة، فقد أنعشه الماء على جسده الذي عطش كثيرا للارتواء، بعد الحمام وبينما يتأمل شكله الجديد أمام المرآة سمع طرقا على الباب!، تبعه صوت لفتاه تنادي عليه باسمه.

ياسر: «من؟» الفتاة: «أنا أخت الفتاة المصدومة، سمح لي أبي أن أتواصل معك، أسمي «هدى» دفعت بالطعام من فتحة أسفل الباب، ثم سمع صوت خطواتها وهي تنصرف، وظلت الفتاة للأيام التالية تتواصل معه بكلمات شحيحة عند دفع الطعام ثم تنصرف.

كان لهذا التواصل القصير أثر عميق في نفسه، فالصوت البشري الذي خاطبه يخلو من أي توبيخ أو تهديد، صوت إنساني مسالم، فمنذ الحادث وهو مُهَان ويشعر بالتحامل.

أنهى طعامه وهو يشعر بالسلام، ولكن هذا الشعور لم يُشبعه طويلا، فالوقت يمر بصعوبة والغرفة خالية من أي وسيلة للتلهّي ولا يملك سوى الماضي يُبحر فيه مصارعا ذكرياته المؤلمة، ظل يتنقل فيما سبق من عمره، يتذكر حياته قبل العودة لمصر وهو يبتسم؛ ثم يضطرب وجدانه بعنف حين يتذكر ما تلى ذلك من انحراف حين وقع على أصدقاء السوء وصِدامه بأمه وغدره بها.

ظل على هذا الحال أياما كافية لبلوغه قمة الضجر والملل. في أحد الأيام؛ كان الطعام ملفوفا في أوراق من مجلة، كم كانت سعادته حين قرأ ما فيها، ظل يعيد قراءتها طوال اليوم.

في اليوم التالي توسل إلى الفتاة قائلا: «هل تتكرمي بإعطائي مزيدا من الأوراق؟، أو تجلبي لي كتابا أو قصة؟»

هدى: «لا بد أن يأذن أبي، ولا أدري متى يأتي، لكني أعتقد إن أعطيتك مصحفا لن يعترض».

ياسر: «حسنا؛ أعطني مصحفا، ولكني أرجوك أن تُغلِّفي الطعام بأوراق مكتوبة، تُسليني حتى يأذن أباك»، لم تجب الفتاة، وانصرفت ثم مدت إليه بعد لحظات علبة بها مصحف.

ظل «ياسر» أسبوعًا كاملًا لا يجد سوى القرآن وبعض الورقات ليقرأها، وجد نفسه يحفظ دون عمد بعض الآيات والسور وأيضا يتفكر فيها، ولكن الأوراق الأخرى لم تكن كافية للتغلب على ملل اليوم الطويل.

بعد أسبوع طرق الباب رجلان ثم دخلا عليه، قاما بتعليق مكتبة على الحائط، تحتوي على كتب كثيرة، علقوها ثم غادروا في صمت.

منذ ذلك اليوم، وحدث تغير هام في روتين «ياسر»، أصبحت «هدى» كريمة معه بلا حدود في الوقت الذي تتحدث معه، كان الحوار في الغالب يدور لساعات حول ما قرأه، وكان يتعمد أن يطيل الحوار حتى لا تنصرف عنه، يفتح مواضيع ويسأل أسئلة وهي تستجيب وتظل تتحدث معه باهتمام، ولدهشته وجدها تمتلك ثقافة رفيعة، أخبرته أن تلك الكتب التي يقرأها هي من مكتبة والدها، وأنها قرأتها

جميعا، علم منها أنها تكبره بعشر سنوات وأنها حاصلة على درجة الدكتوراه في أحد العلوم الإنسانية، ولهذا كان للحديث بينهما أثر عميق في إعادة تكوين أفكاره وقناعاته، فقد كانت تقوم بتحليل كل ما يقرأ وتعطيه الخلاصات التي لم يتمكن بعقله البسيط من الوصول إليها.

وبذلك مرت أسابيع تالية وهو في سجنه، وأحست هدى أن قلقه وملله قد خف كثيرا على الرغم من ضجره من عدم علمه بموعد إطلاق سراحه.

وفي أحد الحوارات؛ طلب «ياسر» منها أن تدخل ليتحدثا وجها لوجه، في أول الأمر رفضت؛ ولكنها في النهاية وافقت.

وكان هذا دليل على ثقتها فيه، فانفراده بها مغامرة وهي فتاة ضعيفة ولو علم أبوها لثار وغضب عليها وعاقبها. أخيرا أوفت بوعدها ودخلت عليه في اليوم التالي، رآها لأول مرة، لا يدري هل هي فتاة أم سيدة فهي في منتصف الثلاثينيات وجمالها يضاف إلى ثقافتها فيضاعف انجذابه لها.

لم تقبل الدخول إلا بعد أن أيقنت أن حديثهما الطويل قد أحدث أثرا عميقا في شخصيته، وكالعادة بمجرد دخولها شرعا في أحاديث عن قراءاته، هو يعبر عما فهمه وانفعل به، وهي تُعلّق وتُضيف عليه من ثقافتها ودراستها، الحديث ممتع واللحظة ساحرة، لم يحظ منذ زمن بعيد بمثل هذا السلام والحميمية، لقد تعلق كثيرا ب «هدى»، نعم هي تكبره بعشر سنوات، ولكن ما وقع له من أحداث جعلها تحتل وحدها خياله وأحلامه، وفي خضم حالة من الاندماج بكل جوارحه، وبينما يستمع إليها وبصره لا يريد أن يحيد عنها؛ وبينما سمعه مشدود لكل ما تتفوه به؛ وبينما يعاني مشاعر التفاعل بجمالها؛ نظر إلى جانبه دون وعي ولاحظ أنها أهملت الباب وتركته مفتوحا!، لم يتردد أمام تفكير اللحظة وأسرع إلى الباب وخرج بعد أن أوصده عليها وفر هاربا، ولدهشته وجد أنه لم يكن في منزل!، بل هو نفس المكان الذي حُبس به أولا!، عرفه من انتشار نفس الروائح الكريهة التي كانت تملأ الأنف، رأى بعض العاملين هنا وهناك فتسلل متخفيا منهم واحدا بعد الآخر.

وأخيرًا وجد نفسه في الخارج.

أخذ يعدو بلا توقف لدقائق كثيرة حتى تأكد أنه ابتعد بما يكفي، ثم ارتمى على الأرض وظل يلهث ويرتعد وهو ينظر إلى السماء في ذهول من تلك المغامرة الطائشة ويقول لنفسه وهو يلهث وأنفاسه متسارعة:

لقد غدرت ب «هدى»، ومن قبل غدرت بأمي!، أين أذهب؟، هل أعود لأمي ولأصدقائي ولدراستي!، عندما أفكِّر في هذا؛ أتخيل الحياة لا تُحتمل وأنا أحمل تلك الغدرات، غدرت بنفسي وآذيتها حين أدمنت، وغدرت بأمي حين أقحمتها في الفخ الذي وقعت فيه، وغدرت ب «هدى» التي منحتني ثقتها وساعدتني لاسترداد نفسي والتغلب على الحيرة والوحشة التي كنت فيها.

نهض وسار بهدوء حتى وصل إلى المزرعة، تسلل إلى حيث أغلق الباب عليها ونظر من نافذة الباب؛ ولدهشته وجدها جالسة على السرير وفي يدها كتاب تقرأه! ما هذا الهدوء والثبات؟، كان يظنها ستصرخ وتستدعي العمال لينقذوها ثم يطاردونه، فهروبه سوف يثير أباها، هل كانت تنتظره؟ هل أرادت أن تعطيه فرصة ليخوض الامتحان كاملًا!

قال لنفسه: «يا لها من ملاك!»

قام بتحرير المِزلاج وفتح الباب ثم جلس على ركبته أمامها وهو يبكي، لم يجد في نظراتها أي لوم بل تساقطت قطرات الرحمة من عينها وهي تربت على كتفه، ناشدته أن هوّن على نفسك. زاد انفعاله ونقمته على نفسه ثم انطلق صارخا:

«أنا لا أستحق الرحمة ولا المغفرة»؛ ثم قام بسب نفسه ولعنها، وهمَّ أن يعترف لها بما فعله بنفسه وبأمه.

وفجأة فُتح الباب، نظر حوله؛ ورأى؛

«أباه، وأمه، ووالد الفتاة، و..... صديقه القتيل»، ثم أغشيَّ عليه.

عاد إلى وعيه وهو على سريره في نفس الغرفة، تحوطه أمه بذراعها وتنظر إليه في حنان وإشفاق وهي تبكي. الجميع ينظر إليه بوجه سار؛ وكأنهم طاقم تمثيل في مشهد النهاية.

قال أباه دون مقدمات: عندما أخبرتني والدتك بما حدث؛ أصابني الذهول والعجز.

فليس لي في الدنيا سواك أنت وأمك . ولا وقت للحساب والعتاب؛ فهذا النوع من الإدمان يندر الشفاء منه.

عدت سريعا ونزلت في فندق وجاءتني أمك وأخبرتني بكل التفاصيل وتناقشنا.

اتفقنا على إيداع أمك في مصحة للعلاج، ولكن بعد أن نقرر ما سنفعله معك.

لم أكن أحمل همها؛ فلديها كأم من الدوافع القوية ما يجعلها تفعل المستحيل لاستعادة سلامنا وسلامتنا الأسرية. ولكنك، أنت، كنت المعضلة التي لا حل لها.

قمت بزيارات لأكبر الأطباء المتخصصين في الإدمان. وأتفق الجميع على أن هذا النوع من الإدمان يَنهزم أمام عقبتين؛ العقبة الأولى؛ هي مرحلة بداية انسحاب المخدر من الجسد، فالآلام لا تطاق، والمريض يعاني أشد الآلام الجسدية والنفسية في تلك المرحلة.

العقبة الثانية؛ هي ما بعد الشفاء، فالعودة للإدمان محتملة وميسرة في أي وقت، وغالب من يعالَج ينتكس ويعود كما كان وأسوأ.

وكان الحل السحري عند «هدى»، تلك الطبيبة الذكية، التي أوقعني القدر عليها، زعمت أن لديها حلا سحريا لتلك المعضلتين، وعدتها بمكافأة كبيرة، ووافقتُ على خطتها كلها.

الفتاة التي صُدِمَت بالسيارة؛ كانت دُمية.

صديقك الذي أطلقوا عليه النار؛ كان متواطئا معنا؛ فتظاهر بالموت.

الفترة التي قضيتها أمام الأسد؛ كان هدفها أن تصل لأقصى درجة من الفزع، فالفزع سوف يُغطي على الآلام النفسية والجسدية في فترة الانسحاب، وضعت كاميرات مراقبة تكفي للتأكد من عدم وصولك لمرحلة اليأس فتنتحر.

كان هناك رقيب طوال الوقت كي يتدخل في الوقت المناسب.

بعد نقلك للغرفة الأخرى؛ كانت «هدى» جاهزة لتتولى العلاج النفسي.

العلاج النفسي غير المباشر، والذي يُغير القناعات.

تؤكد الدكتورة «هدى» الآن؛ أنك عدت لنا سالما وبلا مخاطر الانتكاس.

الحمد لله على سلامتك.

* * *

على نظافة

صحا الناس على خبر يتصدر كل الصحف ونشرات الأخبار، خبر مذهل وصادم؛ «أصدر الرئيس قرارا ببدء إجراءات تسوية خروج كل المسجونين والمحكوم عليهم بكافة الأحكام، بما فيه حكم الإعدام، على أن تُخلى السجون تماما خلال عام».

أثار هذا القرار عواصف من النقاش بين كل الناس، كيف يحدث هذا؟ هل هذه رحمة أم حماقة؟ كيف يخرج الجميع؟ كيف يصل تنفيذ القرار إلى من سيطبق عليه الإعدام أو الجرائم الكبرى؟ كيف يفرج عن القاتل؟ وأين القصاص؟

استمر الصخب في كل مكان في البلاد، ومرت أيام متوالية ولم يصدر من الرئاسة أي توضيح أو تعليق على هذا الخبر، ولم يصدر حتى ما يشير إلى أن هذا الخبر قد شُرِع في تطبيقه.

ثم أعلن الرئيس أنه سوف يُلقي خطابا للناس اليوم.

في المساء ظهر الرئيس وهو يخاطب الناس قائلا:

أعلم أن القرار أربك الجميع، وامتزج في الناس مشاعر الفرح والحيرة والتعجب، ولكن بما أنني أول رئيس منتخب ديمقراطيا في بلادي، وبما أننا في مرحلة جديدة؛ فلا بد كما يقول المثل:

«البدء على نظافة»

ففي عام الرمادة أوقف الخليفة العادل «عمر بن الخطاب» حد السرقة، وما مر بنا من فساد وإفساد لكل شيء؛ جعل شعبنا يعيش في مناخ يُفسد؛

«الأخلاق، والضمير، والعلاقات، والنفوس، والمعيشة بكافة وسائلها»

مناخ يربك العقل ويعيد ترتيب القيم بطريقة مشوهة؛ فيتقدم الشر وينسحب ويتراجع الخير.

سوف نعتبر أن كل ما مضى؛ وكأن هناك شريرا نشر غازا بين الناس يُثير الاضطراب في العقل، ونعتبره ماضيا وذكرى سيئة مرت بنا، وما علينا سوى أن ننظر للأمام ونعالج من تضرر ومن أضر، ثم نبدأ حياة جديدة شفافة.

في السجون سجناء من كل نوع، وهناك المظلوم وهناك المستحق للعقوبة، ولكن كما بدأنا العهد الجديد بأن تم العفو عن جميع الناس وتسوية المظالم؛ وحدث سعي لتراضي المظلوم مقابل العفو عن الظالم؛ فكذلك في السجون، سنفرج عن الجميع، مع استبدال العقوبة بعقوبة مدنية تصب في صالح المجتمع، فيحصل التأديب ولا يُحرم الإنسان من حريته ولا يُحرم أهله منه.

ومن ارتكب جرما فيه قصاص فسوف نسعى بكل الطرق لنيل العفو من ولي الدم، فالعفو أصبح واجبا على الجميع، بدون العفو لن نستطيع البدء من جديد.

وهذا القرار لا يعني إلغاء السجون، بل يعني أنه عقب المرحلة الانتقالية التي ستوفر فيها الظروف للجميع للعيش في سلام وأمان، سوف نعاقب من يُجرم بما يستحق.

هناك لجان منعقدة لدراسة حال كل سجين، وسوف تنتهي لقرار على أن تفرغ السجون خلال عام من كل من فيها.

وبعد ذلك نبدأ على نظافة، ونتحرر من أثقال وأخطاء الماضي.

هناك من يقول إننا سنطلق الأشرار، وأنا أقول بل سنفتح المسام في جسد الأمة لخروج الشر مثلما يخرج العَرَق من الجسم، مناخ السلم والعفو والمغفرة والعذر هو ما نحتاج له جميعا، قد يكون لهذا ثمن ندفعه كمجتمع، ولكن هذا الثمن سوف يكون مضاعفا وفادحا حين نؤخر هذا القرار، فالثارات سموم، والأحقاد قنابل عنقودية تنتشر في كل اتجاه، ولا بد من أن نعطي أنفسنا فرصة.

* * *

مدينة المثقفين والنخبة

كان يا ما كان يا سعد يا إكرام وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام

في العصور الوسطى، زماااااااان، لما كان الإنسان في بلادنا؛ عايش ومش عايش ... فاهم ومش فاهم ... شايف ومش شايف.

لابس ومش لابس ... آمن ومش آمن ... وكل حياته فيها

«مِش»

كان هذا في بدايات القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد.

الشيخ: يا ترى أنت فين يا مرزوق!

يسمعه مرزوق وهو ينادي عليه؛ فيتعجب أنه يناديه وهو بجانبه

مرزوق: أنا هنا يا أبي بجانبك.

الشيخ: يا ترى أنت فين يا بني!

تزيد دهشة مرزوق ويشك في أنه يسمعه.

فينحني إليه ويقف في مواجهته وينظر كل منهما للآخر.

مرزوق: أنا هنا يا أبي أمامك.

الشيخ: ألم تر ابني مرزوق يا ولدي؟

يهتز مرزوق وينزعج، فيضع يده على كتف أبيه ليشعره به.

مرزوق: أنا مرزوق يابا، وواقف قصادك، وعيني في عينك، وشايفك وأنت شايفني.

الشيخ: طيب يابني ربنا يبارك لك.

لما تشوف مرزوق قله أبوك محتاجلك.

ينظر مرزوق بفزع إلى الناس حوله، ويسألهم؛

ماذا جرى للشيخ!

فهو يراه ويسمعه ويحس به ولا يتعرف عليه؟

ينادي فيهم أن أخبروه أن مرزوق بين يديه.

ينظر إليه الناس ويبتسمون له في بلاهة.

ويقول له أحدهم:

اعمل يا بني فينا معروف ودور معانا على مرزوق!

يضحك مرزوق في ألم وهو غير مصدق.

ويظل يهز أباه ويهز الناس ويخاطبه ويخاطبهم وينادي فيهم ويصرخ.

مرزوق: أنا مرزوق وأنتم تعرفونني وتفتقدونني ومع ذلك؛

تبحثون عني؟ وتنكرونني؟

وتمر الأيام ويستمر حديث الطرشان.

مرزوق: أنا مرزوق.

الناس: هل رأيت مرزوق.

وبمرور الأيام يشك مرزوق في نفسه وينكرها ويتوه عنها.

ثم يستسلم.

ويدور في البلاد معهم؛

يبحث عن مرزوق وينادي؛

يا ترى أنت فين يا مرزوق!

* * *

ببســـاطـة

الفصل الأول: شرارة اليتيم

استيقظت القرية على حادث بسيط، بسيط جدا، حادث لا يستحق حتى أن يُذكر، والمثير للدهشة أنه لم يتبخر سريعًا من ذاكرة الناس!

هذا ما حدث... مجرد ورقة كراس معلقة بمسمار على قبر بأطراف القرية، بها كلمات مكتوبة بقلم جاف وبخط رديء، كلمات قليلة عن «أم الخُلول»!

ذكر اسمها بعد كنيتها، ثم أخذ يُعدد مساوئها من بُخل، وقبح، وشر.

ولسوء حظ «أم الخُلول»، انتبه للورقة عابرون بتلك المقبرة، ففازوا بحظهم من الضحك ثم لم يُقَصِّروا في نشرها كنادرة يتسلى بها الناس.

كم كانت هذه الورقة مباركة!

أصبحت تلك السيدة حديث القرية، لم يعد أحد يذكرها باسمها الحقيقي، فقد أصبحت «أم الخُلول»!

بعد بحث يسير، تبين أن تلك الورقة كتبها الصبي -ابن زوجها- الذي كان يعاني من قسوتها واضطهادها، وتحت شعوره بالقهر قام بتلك الفعلة البسيطة، لم يكن يعلم أنها سوف تؤثر هذا التأثير، فهي مجرد ورقة تنفث ما يختزنه في نفسه البريئة من كبت وقهر، فعلقها على قبر في أطراف القرية بعيدًا عن منزل أبيه، علقها على قبر «أمه»، ربما تقرأها روح أمه أو الملائكة، يعاتب فيها أمه أنها رحلت ورحل معها الحنان وطِيب الحياة، وظن الولد أن لا أمل في أن يلحظ أحد الورقة.

لم يكن يعلم أن أهل القرية يملكون من الفراغ وسوء النية ما يجعلهم يلتقطون أي مادة للتشهير تلوكها ألسنتهم، ورغم أن الفاعل اعترف بفعلته إلا أن «أم الخُلول» لم تستطع إلا أن تُحسن معاملته، فقد أصابها في مقتل! ولا أمل لها في أن تخلع عنها هذا اللقب الذي ألصق بها، لكن على الأقل لا تريد المزيد، فهذا الولد لا تعلم ردود أفعاله، ربما فعل ما هو أسوأ.

كان المتوقع بعد تلك الحادثة أن تنتهي «الحدوتة» وتعود القرية كما كانت إلى سكونها، فما حدث هو سذاجة

محظوظة انفلتت من صبي يعاني قسوة زوجة أبيه...لكن كما في الأساطير، السد العظيم عندما غادرته صخرة صغيرة تَهَدَّم.

لقد كان لتلك الحادثة أثر أعظم من صخرة السد!

كيف الحال عندما يعود جنود من جبهة الحرب، حيث الصحراء والخشونة والتقشف، ثم يرون أمام أعينهم الخضرة والماء والوجه الحسن؟

هل سيجد الشيطان أي صعوبة في أن يلعب برؤوسهم ويُزيِّن لهم؟...هذا ما فعله الشيطان برؤوس الذين يعانون كبتًا مثل الصبي!

فما إن مرت شهور كاد الناس فيها أن ينسوا ما حدث؛ حتى ظهرت ورقة معلقة أخرى تتناول شخصًا بالقدح، وتفشي من أسراره وقبائحه ما لم يكن يعرفه الناس، وتضع له «كُنية» يُعَيَّر بها.

هنا هاجت القرية كلها، فالأمر أصبح مشروعًا لظاهرة، ولو لم تُطفأ الشرارة اليوم؛ ستكون نارًا مستعرة يصعب السيطرة عليها. ورغم ثورتهم وتبرمهم؛ إلا أنهم تلقوا الكنية التي كتبت

بروح رياضية فنشروها في كل مكان، فكيف تفلت من أيديهم فرصة للتنكيت والشماتة واطلاق خفة الدم!

أصبح لتلك الورقة المكتوبة سُلطة منح الألقاب لمن يسقط في فخاخها، فيتردد اللقب بين الجميع حتى يكادوا أن ينسوا الاسم الأصلي للشخص المستهدف.

وفي ذروة البحث المحموم والتحقيق للوصول لكاتب الورقة، إذا بورقة أخرى تصدر في شخص جديد.

وسُقط في أيدي أهل القرية، فتلك دوامة لن تتوقف! ومن يقومون بهذه الأفعال أفراد وليسوا جماعة منظمة، فكل فرد له هَمه الشخصي وثأره الخاص، حتى لو عُرف من هو فسيظل الآخرون مجهولين؛ ويتجرأ الجميع.

أصبح الناس يطوفون في القرية بحثا عن أي ورقة معلقة، فملل القرية تبدل إلى إثارة صاخبة وهرج منفلت، فلا يمر شهر دون أن يبدأ مسلسل ورقة جديدة وضحية أخرى... والكل يبحث عن الجاني، والكل يتلقف الاسم الجديد بخبث نفسٍ وينشره..

سَقط بعض الجناة في أيدي الناس، كان لكل منهم قصة ومعاناة شخصية، ومع ذلك فمن يُكتشف يتعرض لعقاب

شديد وتأديب أليم، وبعدها تبدأ رحلة البحث عن الجناة الآخرين...ودوخيني يا لمونة.

وكما يقول المثل «يا حضرة العمدة ابنك حميدة حدفني بالسفندية».

خاف العمدة على نفسه، فمثله بيته كله من زجاج، وأخذ يفكر ويفكر، ثم لم يجد حلا سوى الاستعانة بأصدقائه الأبالسة.

انتهوا إلى شاب تم رفضه من فتاة ويشعر بجرح في كرامته، فاستعان العمدة بزبانيته لكي يُسوِّلوا له أذيتها بالتشهير بها، فقام الشاب بنشر ورقة تقدح في سمعتها...هنا كان الأمر شديدًا على كل القرية، فقد وصلت اللعبة إلى ما يمس الشرف والسمعة، وبعد أن تأكد العمدة من الأثر الكامل لتلك الورقة في أهل القرية، أمر زبانيته بتسهيل اكتشاف الشاب الذي عوقب بقسوة.

ومنذ ذلك اليوم، تبدلت نظرة الناس لتلك الطريقة، والبركة في العمدة صاحب نظرية «القِلة المُنْدَسَّة والطرف الثالث»، وكما كانت ورقة الصبي هي الشرارة التي أشعلت تلك

الحرب الإعلامية بالقرية، كان لحادثة التشهير التي تزعمها العمدة، تأثير كبير في زهد أهل القرية في هذه اللعبة، فتوقف النشاط تدريجيا دون جهد حتى تلاشى وأصبح نسيا منسيا... ولكن!

الفصل الثاني: مدينة القهاوي

مضت عشرات السنين على الحادث، ولم يتبق منه إلا بعض الذكريات؛ قصص يرويها الأجداد لأحفادهم.

في مدينة مجاورة، كان بطل قصتنا؛ «مخلص» شاب في منتصف الثلاثينيات، متزوج وله أطفال، دخله مناسب؛ عمله أيضا مريح؛ يعيش حياة الموظفين.

في المساء كان روتينه اليومي في المقاهي مع أصدقائه.

وما أكثر المقاهي في بلادنا ! وما أكثر الشباب المتراص يوميا عليها!

مقاهي هدر العمر والأحلام في بحور فقدان الأمل.

كثيرًا ما يفكر «مخلص» في الحالة المصرية! هي حالة مصرية وعربية بامتياز.

حالة إن تم مسح لكوكب الأرض لن يجد مثلها.

فمصر والعرب؛ أصبحوا وكأنهم رقعة قديمة في ثوب عروس في أزهى زينتها.

في المقاهي، تُقدَّم المشروبات الساخنة والباردة مع وسائل التسلية، ويُخرج الزبائن «كلام».!

كلام يخرج تحت تأثير الانجراف العاطفي؛ ففي هذه الجلسة يتحرر الإنسان من كل شيء، فقط عليه ألا يتكلم في السياسة، الدنيا واسعة جدا بعد أن نطرح منها السياسة ويتبقى الكثير والكثير.

يتطاير الكلام هنا وهناك، من يتكلم ليريح ضميره وهو يظن أن لا مستمع.

من يتكلم ليستعرض ضخامة ذاته وبلاغته ويستمتع بالآذان مُطرقة له.

من يتعمد ألا يتكلم؛ ولكن نظرا لما يحمله من أثقال تكدر ضميره وخاطره؛ فلا بد من لحظة يسترخي حذره، فينطلق منه رغما عنه ما يحذر البوح به.

من يُقدم لأصدقائه تقريرًا عما خَبِرَهُ ومارسه في حياته أو في الأيام الماضية، مجرد سرد بريء.

الدنيا كلها على القهاوي... وهذا ما لاحظه «مخلص» الذي أذهله أن الناس يتحدثون أحاديث يَشيب لها الوِلدان؛ وكأنها حكايات سندريلا والجميلة والأقزام السبعة والسندباد.

«كلام من رصاص، وجسد من نحاس» أصبح الناس لا يشمئزون من الروائح الكريهة والخطايا العظيمة، بل أدمنوها مثلما يُدمن المسكين روائح الكاوتش والكُلَّة».

قصص الفساد والغدر والقهر والذل والخيبة تتطاير هنا وهناك. والناس كأنهم مرضى في غرفة العمليات تحت التخدير؛ تُقَطَّع لحومهم بمشارط ولا يشعرون.

دار «مخلص» مع الناس في دنيا القهاوي، كأنها درجة مخففة من غُرز الحشاشين، ضميره حائر، يرصد الظاهرة، يتفاعل معها، والفكرة منفلتة منه وهو غير قانع، وهو أيضا؛ متألم لبلاده وأهل بلاده .إلى أن قابل «مخلص» فتى القرية!

التقى مخلص صدفة «بفتى القرية» على القهوة، لم يعرفه من قبل، ولن يعرفه فيما بعد!، وضعه الله في طريقه ليرمي إليه بطرف الخيط ثم ينصرف، حكى الفتى له ولرواد المقهى القصة التي حكاها له جده؛ كيف انطلقت الشرارة في القرية من الصبي؛ وكيف ولماذا انطفأت بتدبير العمدة الذي يمثل السُلطة.

رجع «مخلص» إلى منزله وهو يظن أنه نسي الأمر. فهي قصة من ملايين القصص التي تدور في المقاهي.

لكن انتابت «مخلص» حالة غريبة!، ظلت تتردد هذه القصة على خاطره... تبرق في عينه ثم تختفي، ثم يتجاهلها فتبتعد، ثم فجأة تومض ثانية أمام خاطره، كأنها جنية الأفكار في أجمل زينتها، تبرز له ولا تبوح بما تريد.

ولأن كل شيء لا بد له أن ينضج؛ كذلك الأفكار، أخذ يعيد التفكير في تلك القصة، ويقلبها شهورًا طويلة، يحاول استخراج فكرة حية منها، وفي كل مرة تُجهض، لكنه أخيرا بعد محاولات عديدة نجح في أن يُجبر جِنية الأفكار على الهبوط للأرض والعيش مع سيدها «مخلص» ، فالأفكار ملائكة، تتطاير حولنا ولكن أغلبنا غافل؛ حجابه غليظ وبصيرته مُعطلة.

لم يتغير روتين «مخلص» في المساء؛ فقط لم يعد يسهر في مقهاه المعتاد، ظل يتنقل بين المقاهي حتى أنه أصبح من روادها جميعا، أتاح له هذا الالتقاء يوميًا بأكبر عدد من الناس، وأتاح له أيضا سماع أكبر عدد من الحكايات والذكريات والشِكايات، خاصة أننا في زمنٍ الكل يتكلم ويَندر من يستمع، فتحول «مخلص» إلى آلة استماع.

أثناء سماعه يُظهر كل مظاهر الاهتمام والفضول والتعاطف، بل ويسأل ما يشاء ويُجاب في سرور وترحاب، سمح له

هذا باستخلاص كثير من التفاصيل، يرجع مخلص يوميا من المقهى فيسجِّل في مذكرته كل ما سمعه من حكايات، الأسماء والأحداث وكافة التفاصيل مهما كان القليل أو الجليل خطرها.

أصبح لدى مخلص على مدى عام كثير من الأوراق والدفاتر التي تحوي حكايات واقعية في أغلبها، وما عليه سوى ترتيبها والاختيار منها، وكأنه يملأ مربعات مسابقة الكلمات المتقاطعة.

درس «مخلص» الفكرة جيدًا، ودرس كل أخبار الفساد التي جمعها في دفاتره عبر عام، كان يدرك أن لا بد من اختيار قضية «غير قابلة للفشل»؛ وفي نفس الوقت يستحيل على الناس التغاضي عنها، فمعظم الذي سجله «مخلص» معروف للناس... ولكنهم مَرضى باللامبالاة وباعتياد طعم الظلم، حتى أنه يدور بينهم وكأنه يَحدث في كوكب آخر، وكأنه فضيلة لا رذيلة.

يعلم «مخلص» أن كثيرًا من الناس قد يكون لهم عورة مكشوفة، وطالما الكل صامت فلا مس بالكرامة، ولكن عندما يُعَيَّروا بها؛ يكون الانتفاض والثورة.

تذكر «مخلص» مشهدًا في الرواية الروسية؛ «الجريمة والعقاب»؛ مشهد دخول البطل على عنبر للسجون الجماعية للنساء، فوجد كثيرا منهن عراة الصدور، قليل منهن أسرعن فسترن أنفسهن بمجرد رؤيته، أما معظمهن؛ ظللن كما هن بلا حراك.

فَسَّر الأديب ذلك؛ بأن طول وكثافة الذل؛ نزعت من النساء حياءهن؛ فلم يتبق لديهن بقية مزاج للالتفات إلى العفة. هذا شبيه بما وصل الناس إليه اليوم، فمعظم الرجال والنساء في مدينتنا؛ أصبحوا «عراة الأثداء».

استيقظ الناس في المدينة؛ على ورقات مطبوعة ومعلقة في عدة شوارع جانبية، تُفشي أسماء من يقومون ببيع المخدرات لطلبة المدراس، ومن يحميهم من رجال السلطة.

الكل يعلم والكل صامت والضحايا أولادنا وبناتنا، لم يكن من الصعب انتشار خبر تلك المُعلقات على الناس، الكثير قام بتصويرها ونشرها في وسائل التواصل فأصبحت حديث الناس.

لكن لم يصدر من الناس أي رد فعل سوى الثرثرة، الوحيد الذي هاج ونشط هو ذلك المسئول الفاسد وأعوانه من

البلطجية، بذلوا كل الجهد في محاولة معرفة من وراء المعلقات.

كان «مخلص» يدرك أن الاستجابة لن تكون سريعة، لأن العورة المكشوفة ما زالت على المشاع، ما زالت تائهة بين الناس فلم تُشر بالأصابع لضحايا تلك العصابة. ظل «مخلص» على عادته يتلقى ردود الأفعال في المقاهي، يستمع للناس ويدرس نفسيتهم في تفاعلهم مع الحدث. بعد مرور أسابيع معدودة قام بنشر ملصقات أقل في العدد، نظرا لأن الباحثين عنه متيقظون، ولكنها كانت كافية لأن تنتشر. ذكر فيها تعريضًا ببعض قصص ضحايا الإدمان من الذكور، لم يذكر أسماء ولكنه كان يمتلك من المعلومات عن هذه القضية الكثير، فالبلد مهما كبرت فهي مجتمع صغير.

هنا ألقى حجرًا في الماء الراكد؛ فتحرك عند الناس «رادار» الشعور بالخطر، ففي الماضي، كل أسرة تصاب بكارثة إدمان أحد أبنائها أو بناتها تتعامل معها وحدها، وتعتبرها وكأنها ورمًا أصابها في موضع حساس، فيجتهدوا في تكتم الأمر، لكن يستحيل التكتم الكامل فلا بد من تسرّب أنفاس وروائح من أي حادثة مكتومة في أسرة أو عائلة، فأفراد العائلة يتحدثون، ولا حديث يَمكث مكانه دون تسرب أو انتقال.

أصاب أهل الضحايا الفزع، وهم كثيرون؛ فهذه مقدمة لذكر الأسماء وربما يتطور الأمر لذكر أسماء الضحايا من البنات، والقصص التي تُتداول سرًا في المدينة سوف تصبح على لسان الجميع بمزيد من التفاصيل.

كان ذكاء من «مخلص» أن اختار قضية «بيع المخدرات» كي تُثار؛ فغالب الضحايا من أبناء الشخصيات القديرة ماديا، فالمخدرات ليست بضاعة شعبية، وتلك الشخصيات تمتلك وسائل ضغط؛ خاصة حين يوحدهم الخطر؛ ولا أخطر من هذا التهديد.

بدأ نشاط محموم من الاتصالات لإيجاد حلول تُبعد خطر الفضائح، هنا حدث تطوران في ردود الأفعال؛ الأول: اختفاء البلطجية الذين ذُكر أسماءهم، وبهذا حدث تقلص في نشاط التجارة، فلم تعد المواد المخدرة تتداول بسهولة وعلنًا بين الطلبة.

الثاني: قام المسئول باستخدام سلطته؛ فتم القبض على المعارضين بالبلدة والقرى المجاورة، وضَغط عليهم بكل الوسائل للاعتراف، ولكنه لم يستطع الحصول على أي خيط يصله لمخلص.

«مخلص» لم يكن سوى مواطن مصري بلا انتماء أيدلوجي، ولو كان عضوًا في جماعة لكان من السهل التعرف عليهم جميعًا وإجهاض أفعالهم.

في خضم ذلك النشاط المحموم استيقظ الناس على مُعلقات قليلة العدد تُصَعِّد من الأمر، تم ذكر بعض أسماء الضحايا من الذكور، وذَكر أحداثًا بعضها معلومة والأخرى مجهولة للناس؛ ثم ختم بالقول: «وانتظروا قريبًا المفاجأة»!

انتشرت المعلقة في كل وسائل الاتصال لتثير الفزع الشديد، هذا تهديد بذكر الضحايا من البنات، لم يستغرق الأمر طويلا حتى صدر أمر بنقل المسئول الكبير إلى الصعيد، بالطبع لم يعاقب أو يحاسب على جريمته، هل يعقل أن يحدث هذا؟

لو حدث هذا ستكون بداية سلسلة لا نهاية لها؛ وهم أذكى وأعند؛ كيف يدخلوا هذا النفق ويجترئ الحرافيش عليهم!، ولكن على أي حال كان هذا نجاحًا «لمخلص» فقد توقفت تجارة المخدرات الموجهة لطلبة المدارس؛ وأزيح المسئول «الفاسد المُفسد» من المدينة؛ وأثبت «مخلص» للناس؛ أن «هناك أمل وهناك قُدْرة».

الفصل الثالث: اليقظة

ظل الحدث مَثار أحاديث الناس طويلًا وكثيرًا، طال انتظار الناس للخطوة التالية، فالموضوع بالنسبة لهم أصبح مثل رواية «علي الزِيبق»، شخص بارع في الحِيل يقوم بملاعبة الفاسدين وعندما ينتصر في حِيلة؛ تنتشر الحكايات بين الناس وتُشفي صدورَهم، وكأنهم يشاهدون مباراة كروية لا دور لهم سوى المشاهدة وتذوق طعم نصر متوهم؛ ولكن لم يصل لحلوقهم، لأنهم متفرجون.

مر وقت طويل؛ ولم تُعلق ورقة، الورقة التي عاين الناس من خلالها نموذجًا متجسدًا للإيجابية، فهذه أول مرة يُدرك الناس أنهم يقدرون وأن هذه القُدرة لا تتطلب مخاطرة أو الاصطدام بالسلطات، أول مرة يُدرك النبهاء من الناس أن هناك طُرقًا أخرى وقضايا أخرى يستطيعوا التعامل معها وتغييرها، ولكنهم مقصِّرون لأنهم ألقوا منذ زمن بعيد كل مهام العدل والظلم على السلطة، ولهذا اختلَّت السلطة واختل ميزان مفاهيم وأفعال وتوقعات الناس.

دارت أحاديث بين الشباب وبرزت أفكار ومبادرات تدعو أن تكتمل القصة بأبطال آخرين، وهذه هي خلاصة الفكرة

التي دارت بين مجموعة من المخلصين النابهين بالمدينة، وفي حوارهم الساخن كان معهم رجل يكبرهم ويتفوق عليهم بثقافته وخبرته المعرفية، نبههم إلى أن زمن الأعمال السرية قد انتهى، وثبت على مر التجربة الإنسانية التي استمرت قرنين أن مهما نال العمل السري من مكاسب؛ فسوف ينهار بأصحابه في أي مرحلة من المراحل وسيكون الناتج للخلف لا للأمام، وأنَّ السرية والاستبداد قرينان، علوي وسفلي، وأنَّهما وجهان لعملة واحدة، ويستمد كل منهما الحياة من وجود الآخر، فمن أراد أن يعمل؛ فلا بد من أن يعمل في النور.

سأله أحدهم: كيف! العلن مقيَّد؟

قال: وهذه أهم ميزة في العلن؛ ففي العلن تستطيع أن تُبصر العواقب ثم تَنقد وتُعارض بحكمة، وتستطيع أن تناشد البعض علنًا أن يُساندوك في نقدك وعملك، ولكن في السر سوف تكون بلا قيد، ففي الظلام أنت حر؛ لأنه لا يراك أحد ولن يمنعك أحد، فقد تَقتل وتَفر من العاقبة، ولكن في العلن فقط ستعترض وترفض وتظل واقفًا مكانك ولا تفكر في الفرار، ولهذا مع العمل السري تتراوح خياراتك بين أقصى

الطرفين، وفي حجاب الظلام يتصلب القلب، وإن هجم النور فجأة، يسقط القلب في الأقدام فرقًا وهلعًا، فشجاعة الظلام هي أحلام وأوهام الجبناء.

هذا فضلًا عن أن من يعملون سرا، يسهل تصديق الأساطير عليهم، فمن قال لك إنني أضع الفيل في المنديل؛ تضحك على حُمقه، لكن حين يقال على تنظيم سري؛ أنه يضع الفيل في المنديل، سوف يُصدق الجميع بحماس، لأن السرية بيئة الأساطير.

اقتنع الشباب في مجلسهم بما قاله «صديقهم» الذي عارض السرية، لكنهم ظلوا في حوارهم حيارى في البحث عن تلك الخطوة العلنية التي يوجهوا إليها جهدهم!

تداولوا لليال كثيرة الثغرات في مجتمعهم، وكلما ناقشوا طريقة سد ثغرة مجتمعية انتهوا إلى أن الأمر بالفعل شديد الصعوبة والتعقيد؛ حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم.

ظل «صديقهم» صامتًا طوال تداولهم الأفكار أيامًا متوالية؛ ولا يشارك إلا باليسير من الكلمات، وكأنه يعرف النتيجة مسبقًا ويتعمد أن يخوضوا هذا الحوار الذي يدرك أنه قد ينتهي بهم إلى مشارف اليأس.

وفي تلك الحالة النفسية المتعبة والتائهة؛ قال لهم: «خلاصة كل هذا النقاش، أننا لا بد أن نقتدي بدرس المعلقات؛ فنختار هدفًا مضمون النجاح ويمثل؛ «إما نشر إصلاح أو زوال فساد»، ليس مهمًا الحجم، المهم الإنجاز، خطوة مضمونة ظاهرة للناس خير من قفزة تحتوي على مخاطرة الفشل.

طلبوا منه أن يقترح، فذكر اقتراحه، فضحكوا جميعا في صخب ودهشة أخرجتهم من هموم النقاش العقيم.

ظنوه يداعبهم ولكن بعدما هدأ صخبهم؛ وجدوه ما زال محتفظًا بوجه جاد، ينتظر مناقشة ما عرضه عليهم.

فلما زال الصخب عرض عليهم سبب اقتراحه؛ قال:

لو تأملتم ما يحدث في الأفراح المصرية؛ لرصدتم حالة نفسية شديدة الوضوح، العروسان وغالب الحضور باستثناء الكهول، ينطلقوا في نشاط صاخب، عدة ساعات متواصلة من القفز والرقص والجهد البدني مع اهتزاز متواصل للرأس، والذي يُذَكِّرنا بحلقات الذكر في الموالد المصرية قديما، كل هذا في ظل موسيقى صاخبة ينغمس الجميع فيها وكأنهم في «زار».

بل نحن نعلم أن مجرد خبر حفل زفاف يمثل سعادة غامرة للشباب، ومنهم من يتطفل على الحفلات فقط كي يغوص في تلك الحالة الهستيرية.

الشباب يشعر بالوحدة وأنه يتحمل ما فوق الطاقة، وفي تلك الحفلات يقوم في رقصه العنيف بمحاولة نفض كل ما يثقل كاهله من شعور بالوحدة وهموم تحديات الحياة، في نفس الوقت يتمتع الكل بممارسة الغناء الجماعي؛ الغناء والرقص يُشعرهم بالأنس والدفء المفقود والنادر، كيف تتصورون الحال؛ لو كل من في الحفل يتغنى بأغنيات مشتركة مختارة؟؛ مثل «فيها حاجة حلوة» أو «يا بو ضحكة جنان»؟

كيف لو نجحنا في إدخال تراث خاص بمدينتنا في كل مناسباتنا الترفيهية؟، نتدرج بإضافة مزيد من الأناشيد والأغنيات التي تجمع مشاعر الناس على أهداف نبيلة مشتركة، يتغنى بها المسلمون والمسيحيون في أفراحهم.

فيتبدل المِزاج الشعبي ويتطهر من الفوضى والتنافر الغارق فيهما!، يصبح لمدينتنا لون شعبي خاص؛ يشعرهم بوحدة المزاج والعاطفة.

رغم أن هذا الاقتراح كان بالنسبة له من أنجز البدايات وأيسرها، وفي نفس الوقت مضمون نجاحه؛ إلا أنهم كشباب كانوا يريدون إنجازا صارخا، فرفضوه واستهانوا به، وقبلوا منه البدء في تنفيذ؛ «الاقتراح الثاني».

الفصل الرابع: مجلس الآباء

جلس مدير المدرسة في غرفته منتظرًا أن يبدأ ذلك الاجتماع المُمل، اليوم لقاء مجلس الآباء؛ ويُتوقع أن يمر كالعادة في نفس سلسلة الروتين، عدد الآباء سيكون قليلا كالعادة، والحضور معروفون فلا حاجة للانتقال لصالة الاجتماعات الكبيرة، ليُعقد في غرفته ويُسَوَّد المَحضر.

سينتهي الاجتماع مثل مئات الاجتماعات التي مرت من قبل، لن يُعقد لدراسة صالح الطلاب والمدرسة؛ بل لصالح أبناء الحضور فقط، يَمنح الآباء المدرسة بعض الجنيهات كمساهمة مقابل التغاضي عن أولادهم ومنحهم تسهيلات.

ليست تسهيلات تتيح مزيدا من الشرح والدرس؛ وإنما مزيدًا من التساهل في الغياب و«التزويغ» المبكر من المدرسة، بالإضافة إلى نيل أولادهم الدلال على المدرسين والمدير، وكله بثمنه.

قطع هذا السكون التام دخول حشد من الناس إلى غرفته يتساءلون عن الاجتماع، وقف المدير مذهولا وهو يُحدق فيهم، سألهم بلا شعور: أي اجتماع؟، ظن أنهم دخلوا على

سبيل الخطأ! ، لكن؛ ولخيبة أمله كانوا بالفعل يَقصدون اجتماع مجلس الآباء، لم يكن أمامه إلا أن ينتقل لصالة الاجتماعات الكبيرة، وبعد قليل افتتح الجلسة.

كان أسود يوم في حياة المدير الوظيفية، لم تُنشر أمامه عورات المدرسة كما اليوم، قام كل ولى أمر بِذكر مُدرس وموظف بالاسم، وكأنه عَرض لفيلم سينمائي بلا مقص رقيب لكل ما يحدث في المدرسة، كان مطلبهم الوحيد هو؛ أن تعود المدرسة والمُدرس لرسالتهما الأصلية السامية، شمل كلام الآباء مزيجًا من تهديد، مبطن حينا وظاهر حينا، بالتقدم بشكاوى متصاعدة لأعلى المستويات.

وعدهم المدير خيرًا، وانفض الاجتماع بعد أن ظن المدير أنه يوم بلا نهاية، فكَّر المدير كثيرًا وطويلًا؛ هؤلاء الآباء ليسوا من الأغنياء أو أصحاب السلطة؛ ولكنهم معروفون في المدينة ولهم وجاهتهم واحترامهم، كما أن عددهم لا يتيح للمدير خيارا أن يتقصد ابنا من أبنائهم فيجعله يكره نفسه وحياته، أو يكتب بلاغًا أمنيًا بأنه ينتمى لجماعات إرهابية.

موقف معقد وجديد، والأعقد منه أن يستجيب لهم؛ وأن تعود المدرسة مدرسة، والمدرسون مدرسون، والطلاب طلاب، والتعليم تعليم حقيقي.

الفصل الخامس: سرحان والأوغاد

وقف الأستاذ «سرحان» في الحصة الأخيرة يشرح للطلاب وهو يلتفت دومًا إلى الكرسي في شوق وأمل بعيد، وكلما همَّ بالجلوس سارعه طالب بسؤال يستلزم وقوفه للكتابة والشرح. وعندما ظن أن الحصة قاربت على الانتهاء؛ جلس يُحَدِّق في الطلبة، تمتلئ نفسه بكل أفكار نظرية المؤامرة، هؤلاء ليسوا الطلبة المراهقين الذين يعرفهم، الذين كانت كل أفكارهم ومطالبهم المغادرة في أقرب وقت وعقب رصد الغياب من الموظف، والذين لا تنقطع نِكاتهم وسخريتهم طوال الحصة.

اليوم؛ ما من فصل إلا وفيه عِدة أوغاد يحملون ورقة بها بعض الأسئلة، لا أعرف من هذا الإبليس الذي أعطاها لهم، ما إن ينتهى الأول؛ يظهر الثاني، لا يخطر ببالهم أن يرحموني ويُبقوا لي بقية جهد لدرسي الخاص!.

بالأمس كنت أتجاهلهم وأتملص منهم، فمن يريد الزُبَد من العلم يجده عندي في درسي الخاص.

أما اليوم؛ فأنا أمام عشرات من الجواسيس لا الطلبة، لا أضمن إن صَدَرَ مني أي مُخالفة أو تكاسل أن أجدها مُسجلة

في مجلس الآباء أو في شكوى جماعية من الطلبة أو أولياء الأمور، بل ربما أجدها مصورة في فيديو على وسائل التواصل الاجتماعي.

لماذا نحن فقط الذين نلتزم ونُصلح؟

الفساد للركب!، المنظومة كلها فساد من أسفها إلى أعلاها.

لماذا يَظلموننا ونُجْبَر على التطهر؟

هؤلاء الآباء حالمون!، مبادرتهم تلك؛ ما هي إلا زوبعة في فنجان، سوف تفشل حتما، ولكن يا ترى! كم «سبوبة» ستفوتني؛ حتى ينتهي هذا الكابوس؟

استيقظ الأستاذ «سرحان» من تأمله؛ على طالب يوقظه قائلًا: «أريد شرحًا لهذا التعريف يا أستاذ»!

الفصل السادس: تعاون النبلاء

عقب صلاة الجمعة، قام أولاد بتوزيع نشرات على الناس؛ تُعلن عن بدء دروس مجانية للثانوية العامة، سوف تعقد في أحد صالات الأفراح التي ليس لها سوق رائج في البلدة، لم يكن الإعلان مثيرًا!، فدائما ما يكون اسم المدرس هو الباعث للإثارة، وفي هذا الإعلان أسماء لطلبة شباب من كليات مرموقة، طلاب في كليات متخصصة في المواد التي سيُدَرِّسونها، طلاب مسلمون ومسيحيون، بنين وبنات... مصريون.

وكما هي البداية دوما؛ كانت القاعة تكاد تكون فارغة، لكن تميزت الدروس بمميزات جديدة على الطلبة، فالقواعد تمنع أن يقوم أي طالب بالكتابة أو تسجيل أي معلومة في دفتره، بهذا لم يكن أمام الطالب سوى أن يُكرِّس ذِهنه كاملًا لتلقي المعلومة بالفهم، لم يُسمح أن يَتجاوز عدد الطلبة عشرين في الدرس الواحد، ومن يزد على ذلك فلينتظر الدرس التالي.

الدرس على نظام «الكروسات»؛ التي تعتمد على النقاش وتدريب الطلاب طوال الدرس، فكان الدرس كله تفاعلا،

فلا يجلس طالب في «بَلادة»، بالإضافة لكل ما مر؛ يتم تصوير الدرس بطريقة محترفة ثم يُنشر على «اليوتيوب» ويظهر المدرس والطلبة بتفاعلهم على النت، مع مراعاة أن يقوم المصور بعمل مونتاج؛ فيقوم بقص أي حوار خارج أو موقف مُحْرِج للطالب أو المدرس.

كان لنجابة المدرسين الشباب وللمميزات التي أُضِيفت للدرس؛ عوامل جذب للطلاب وللترويج للمشروع الخيري، فلأول مرة يُقام درس لا يعتمد على التحفيظ والتلقين للأسئلة المُكررة، الأسئلة التي يُتوقع أن يُفرغها الطالب في ورقة الامتحان، بل هدفه تنشيط العقل ليكون جديرًا بمواجهة أي امتحان.

عقلًا مؤهلًا مُدربًا وليس خازنًا.

أنبل ما في هؤلاء المدرسين؛ أنهم تعهدوا أن لا يتكسبوا من هذا العمل التطوعي، فرغم سوء الأوضاع المادية في المدينة ورغم معاناة الشباب، إلا أنهم امتلكوا الوعي الذي جعلهم يُدركوا أن آفة هذا العمل التطوعي أن يكون سُلمًا للشهرة، وذلك عندما يقوم المدرس بتحويله لعمل خاص به.

الفصل السابع: المِثال

فرغ الخطيب الشاب من إلقاء خطبة الجمعة في أكبر مساجد المدينة، تلك الخطبة التي كان يتندَّر بين أصدقائه في مجالسه الخاصة قائلا: «الخطبة التي تدعو إلى عبادة الأصنام». ثم طوى الورقة وحشرها في جيبه أمام الناس، ثم قال: «أما وقد فَرَغْنا من المقرر، فلا مانع من الترفيه ببعض المواضيع التي نعدَّها من التوافه»

في تلك اللحظة؛ قام أحد المصلين بإخراج ورقة وقلم، وتأهب لتسجيل ما سيقال؛ تحسبا أنه ربما جُنَّ وسوف يتكلم في السياسة.

قام الخطيب بنقد الانفلات في الأسعار وتكلم عن الربح الناتج عن جَشع التاجر، فليس من الحلال أن ينتهز التاجر تلك الفوضى الناتجة عن غياب الرقابة، فيزيد من الأسعار حسب هواه ليستعجل كنز المال السهل.

وتعجب كيف يَرضى التاجر بربح يصل لنصف وربما ضعف الثمن الأصلي!، حَذَّرَ الخطيب من أن هذا سُحْت، وأنه يلوث حياة الإنسان، طلب من كل فرد أن يقوم بواجبه في منع هذا

الظلم، الزوجة تُذكِّر زوجها، الابن يُذكِّر أباه، والأب يُذكِّر ابنه، الكل يوصى بالمكسب الحلال ويُحذِّر من المال الحرام.

ما إن فرغ الخطيب من الصلاة، حتى اقترب منه رجلان معروفان وصحبا الخطيب معهم إلى حيث يُحاسب حساب المَلكين. الغريب أنه عاد لبيته سريعا، ومارس الخطابة دون توقف، بل واستمر في ثني الورقة ثم الحديث عن مشاكل المجتمع التي تَمس كل فرد، فيُنبه على واجب الفرد والمجتمع تجاه تلك القضايا.

الجديد الذي لم يَعرفه الناس، أن الخطيب الشاب تمتع أخيرا بالنوم الهادئ الذي خاصمه زمنًا طويلًا، فقد كان يشعر أنه يَخون عهده مع الله ويُقدم دِينًا مائعًا للناس، واليوم عاد التناغم بين وظيفته وضَميره ورَضي عن نفسه ويكاد يَشُم نَسائم رضا الله عنه.

يرجع ذلك إلى أنه قام بواجبه بتنبيه الناس أنهم من يصنعون العفريت ويُرهبون أنفسهم به، فلا يوجد أحد يمنع الناس من الإصلاح والدعوة إليه، فالناس هم من يُبالغون في تخيل الآلهة البشرية، ويُبالغون في قُدرتهم ونيتهم، ويبالغون أيضا في الاستهتار بأنفسهم؛ فلا يتركوا لخيالهم فراغا لأي سعي إيجابي.

فتح الخطيبُ الشاب الباب لبعض زملائه من الخطباء؛ ضغطوا معه على تلك القضية بتوضيحها للناس، فخاف أهل أغلب التجار على رِزقهم الحلال أن يتلوث؛ فحاسبوا وذَكَّروا ذَوِيهم ممن يُنفقون عليهم من تجارتهم، وانتبه الناس لواجبهم الديني تجاه السرقة والاستغلال وتعلموا أنهم يسرقون أنفسهم بسلبيتهم قبل أن يَسرقهم التاجر.

مرت أشهر و»الخطيب الشاب» مستمر في تلاوة الخطبة المقررة، ثم يُتبعها بملاحظة تَخص المدينة وأحوالها ويربط موعظته العملية برباط من الدين، موعظة لا تتجاوز دقائق قليلة ثم تقام الصلاة.

وكان ملحوظًا تزايد أعداد المصلين كل جمعة، وفي إحدى الجمع؛ قام «الخطيب الشاب» بعمل غير معتاد!، قام بقراءة الخطبة المكتوبة في سرعة بدت متوترة؛ حتى أن الأمر بدى «كوميديا» للمصلين، ومع استمراره في عجلته؛ بدأ ينفلت من المصلين ضحكات مكتومة، تبعها انفجار الجميع بالضحك، قد تكون نادرة تاريخية؛ أن يحدث هذا الهرج الضاحك في خطبة جمعة، دُهش الخطيب ثم تمالك نفسه وتمهل في تلاوة الخطبة قليلًا.

طوى الورقة كعادته، ثم قال أيها الناس: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وإني سوف أدعو، فمن شاء فليؤَمِّن على دُعائي! ثم أخذ يُلقن الناس دعاء غليظا على من يرشو ومن يرتشي ومن يتسبب في رشوة؛ ثم تبعها بقوله: «ردِّدوا ورائي».

ظل يلقنهم تعهدًا أمام الله بالكف عن الرشوة ومحاربتها والتبرؤ ممن يمارسها حتى لو كان أقرب الأقرباء، ثم تبعه بدعاء غليظ على أنفسهم بأن يعاقبهم الله عقابًا مأسويا إن أخلّوا بهذا العهد، ثم حضهم على أن يُلقن كل منهم ذويه هذا الدعاء وهذا التعهد.

ثم قال: أيها الناس، عندما تفعلوا ما في وسعكم؛ يزيل الله عنكم ما فوق وسعكم، ثم أمر بإقامة الصلاة.

أصبح حديث المدينة كلها تلك الخطبة الجديدة في طرحها. فقد اعتاد الناس على التوبة بألفاظ عامة؛ مثل التوبة من الذنوب جميعا وبعدها يعودوا لحياتهم بضمير غير مثقل وكأنهم ملائكة الأرض، لكن في تلك المرة؛ أخذهم الخطيب على حين غِرَّة، فقد خصص الذنب وأشهد الله عليهم وجعلهم يدعون على أنفسهم!

في المساء زار «الخطيب الشاب» «قسيس المدينة» في بيته؛ حكى له ما حدث؛ ثم طلب منه أن يُسانده في تلك الدعوة. فربما كان لهما ثواب تطهير المدينة من تلك الآفة المتفشية. وفي موعظة الأحد لم يقصِّر القسيس وكرَّس الموعظة كاملة لهذا الغرض، كان الأمر أيسر عليه؛ فلم يصل إليهم بعد اختراع الموعظة الموحدة!

وبركة العمل بإخلاص أصحابه، ولا يخلو الناس من خير، بل غالبهم الخير، وأغلب الناس يتيهون عن ترجمة ما بهم من خير حتى يُلَقَّنوا ما يجب فعله.

في الجُمع التي تلتها؛ كرر الخطيب نفس العمل ولم ينتقل لموعظة أخرى، أعلن أنه لن يعظ جديدا حتى ينتهي الناس جميعهم عن هذا المرض والذنب الكبير، سانده زملاؤه من الخطباء في دعوته وسانده الأخلاقيون من الناس.

أصبح تيارًا، وبدأ الناس التحرج من الرشوة، عزَّز من الدعوة سريانها في المسلم والمسيحي، فشجع هذا المشتَرَك على شيوع التطهر وسرى لأول مرة في المدينة دعوة أخلاقية مشتركة بين الناس توقظ الضمير.

الفصل الثامن: انتقام ندمان

كان «ندمان» موظفًا من طائفة «عبد المأمور، قضى عمره في خدمة أسياده.... وما أكثرهم... وما أكثر تعاقبهم عليه. يترقى كل سيد وينتقل، فيحل محله السيد الجديد، كان بالنسبة لهم العصا والجزرة على أهل بلده، وهم بالنسبة له مصدر هيبة الناس منه، بل رُعبهم منه، فعبد المأمور... أمير في أهل بلدته.

أُصيب ندمان قبل بلوغه سن المعاش بمرض أقعده فترك الخدمة وتلاشت تدريجيًا الهيبة والنفوذ، مع توالي السنين تمكن منه المرض فأعجزه تماما، أصبح ثقيلا على أقرب الناس إليه، وزَهد فيه الجميع فلا يُزار وأصبح معزولًا.

كان يسمع من أولاده دوما ضَجرهم منه وتَمنِيهم له الراحة الأبدية، أصبح من الروتين اليومي جُرأتهم عليه وتوبيخهم له في وجهه؛ بل؛ والمجاهرة بالتقزز منه حين يُغيرون ثيابه، فالمُقعد جُثة تتنفس وتصرخ، والموت عزيز عليه يَتمناه فلا يَبلغه، ومع ذلك يمتلئ رعبًا من تخيل مصيره بعد الموت.

يظل حبيسًا في غرفته بلا أنيس غالب يومه، وما أقسى الليل عليه، لا نشاط له سوى التأمل والتحسر، تتراقص أشباح من

ظلمهم عبر العمر الفائت أمام عينيه ولا ترحل أبدا، لقد وقع في الفخ وخسر امتحان الدنيا.

تذكر شريط حياته، أقر بأن عقوق أولاده والذل الذي يغرق فيه؛ ما هو إلا نتيجة مُستحقة للظلم والجُرأة على الله.

في يوم من الأيام؛ صَحت المدينة على تسجيل صوتي منتشر على «اليوتيوب»، يروي فيه «ندمان» ذكرياته، لم يكن يتخيل أحدٌ أن في مدينتنا كل تلك الأسرار!، أبرياء ظلموا، ممتلكات نهبت، نفوس مُظلمة فُضحت، رجال ونساء قُهروا وبُهتوا.

لم يكن في التسجيل أكثر من الأسماء، فَضَح الرجل الجميع وتفوق على الشيخ حسني في فيلم «الكيت كات» فضح الجميع.. الظالم والمظلوم، الحي والميت، بل كان هو نفسه أول وأكثر من هَتك سِتر نفسه.

هذا هو العمل الوحيد في حياة «ندمان» الذي لم يندم عليه، فالليالي الطويلة التي تكبدها وقاساها وحده؛ عرَّفته أنه لم يتبق له أحد يعمل له خاطرًا، وكان هذا العمل بمثابة ثقب الإبرة الذي سوف يمرر منه طريقته في التكفير عن ذنوبه

وختام حياته متطهرًا، وإلا فهو يكاد يوقن أنه سوف يكون مع إبليس في المصير والدرجة.

قامت الدنيا ولم تقعد في المدينة، وأراد المفضوحون وذويهم النيل منه، حتى أولاده أنفسهم تأذوا منه لأنهم فُضحوا فيه وجعل لهم ثارات مع كل من فضحهم، لكن أحجم الجميع عنه يأسا منه، فكما قال أحدهم: «هل أقتله ويُحسب علي بني آدم». تساءل الناس متعجبين؛ «ماذا يحدث في هذه المدينة؟، فلم تعد بسكون الأمس!، لحسن حظ «ندمان»؛ لم تدم معاناته طويلا.

لبى نداء ربه، ربما لن يجد لنفسه في سجله من حسنات سوى تلك الحسنة، فقد أعطى للناس درسًا عمليا بأن القبور التي أطمأن الجميع إلى سترها؛ قد يُقَدّر الله أن يأت من يَنبشها ليخرج أسرارها، وأن أي ظالم يستطيع الندم والإصلاح حتى آخر لحظة من عمره.

الفصل التاسع: أحلام العم فِكري

أصبح «فكري» على المعاش، سقط في فخ الملل والحيرة في كيفية إنفاق الوقت، انتقال حاد من نشاط مكثف في وظيفته إلى سكون تام بالتقاعد، لم يجد حلًا في المقهى؛ فلم يعتد عليها طوال عمره، فطبيعة وظيفته وطِباعه لم يُفسحا مجالا إلا لحياته الوظيفية والأسرية، أكثر ما كان يزعجه تلك الجَلَبة التي يُحدثها الأولاد في الشارع، فهو يسكن في الطابق الأول عُلوي وكل ما يَحدث من جَلبة وصخب يستقر في أذنه، لم يكن يطيق الصخب وكان يكره التوتر، كثيرا ما طلب منهم الابتعاد عن البيت أو خَفض الصوت قليلا، لكنهم أطفال ولا بد لهم من الترفيه واللعب.

في يوم؛ استيقظ كالعادة منزعجًا من صخب الأولاد، نهض مستسلمًا وجلس في الشُرفة يتناول مشروبًا ساخنًا، أخذ يتلهى بمشاهدة الأولاد في مختلف الأعمار وهم يلعبون، كانت بداية العطلة الصيفية وهذا يعني أن الدراسة خُتمت وسيحتل الأولاد والبنات الشارع ليلا ونهارًا.

بينما ينظر من الشرفة وفي لحظة إلهام قفز إلى ذهنه خاطر مدهش، في بداية الأمر تعجب منه، بل أنكره، ثم بعد تقليب الفكرة وتأمله فيها برقت عيناه وابتسم في سرور.

هبط إلى الشارع ووقف على عتبة بوابة المبنى، ظل أيامًا يراقب الأولاد حتى اعتادوا وجوده في هذا المكان، كثيرا ما كان يجلس بعض الأولاد أو البنات قريبًا منه، فينصت لحوارهم الطفولي أو الصبياني في اهتمام وحرص، ثم بدأ في سؤال من لا يعرفه عن اسمه؛ ثم حاول التفتيش في ذاكرته ليعرف من أبوه وأين يسكن، حتى تَعَرَّفَ على أغلبهم، تطور الأمر إلى أن شاركهم في بعض أحاديثهم؛ حتى اعتاد معظمهم على وجوده وحديثه معهم، أصبح من الطبيعي أن يَحكم بين طفلين متشاجرين أو مختلفين أو يحكم على لعبهم؛ فيُرَجِّح احتساب هدف أو إلغاءه.

وهكذا استغرق «فكري» في هذا النشاط، يهبط من منزله مع بداية خروج الأولاد؛ ولا يصعد إلا مع خلو الشارع منهم تماما. مرت الأيام، وأصبح «فكري» من ثوابت المرح للأولاد في الشارع. من جانبه؛ فَهِمَ نفسيتهم وأحلامهم. من جانبهم؛ أَنِسوا له وبه.

كان ينتهز فرصة تجمع الأولاد بجانبه بين أشواط اللعب؛ ثم يحكي لهم من القصص التي في خاطره، كان لديه الكثير والكثير، فقد كانت القراءة هي هوايته الوحيدة طوال حياته.

فكان ينتقي من القصص ما يناسب مِزاج كل طفل أو صبي أو فتاة، وكان لا يكتفي بالقَص؛ بل يطرح أسئلة مفاجئة عن الأحداث؛ عن مبررها الأخلاقي! عن صوابها! عن احتمال تغيير الحوادث! النتائج!، حتى أنه فعل شيئا غريبا؛ فقد حكي لهم قصة؛ ثم اقترح عليهم تغيير حدث في القصة، جعلهم يتخيلون معه مسار القصة الجديد؛ حتى عشق الأولاد تلك الطريقة التي تثير فيهم الجرأة على الخيال.

يومًا بعد يوم؛ ازداد عدد الأولاد والبنات الذين يأتون لإشباع فضولهم، فقد سمعوا ما جعلهم يتمنون معرفة عم «فكري» وحكاياته، ويوما بعد يوم؛ أصبحت قصص عم «فكري» هي غالب نشاط ليلتهم، وهذا على حساب ألعاب الأطفال التي اعتادوا عليها.

في ليلة من الليالي؛ فاجأهم «فكري» بقوله: «من يحكي لنا قصة غدا؟»، تحيَّر الجميع؛ فمن أين لهم بقصة؟، أخبرهم عن مكتبته، أعلن أنَّ من يريد أنْ يستعير فلا مانع لديه؛ شرط المحافظة على القصة.

قال: من يريد أن يتطوع ؟ ويحكي قصة يرفع يده وسوف أعطيه من مكتبتي ما يختاره ليقصَّه علينا. توالت الليالي؛ كل يوم يقف طفل أو أكثر أمام الأطفال وفي حضور «فكري» يحكي لهم، وفكري يضبط إيقاع الحكاية بالتدخل ليشجعه، تعمد «فكري» أن يشرح لكل ولد ما صعب عليه ويدربه على الحَكي قبل أن يقف أمام الأولاد والبنات، حرص على شراء القصص المناسبة للأولاد لكي تَمدهم بما يحتاجون. انتهت الإجازة الصيفية وأصبح اللقاء في مساءي الخميس والجمعة، يتجمعون أسفل المبنى الذي يسكن فيه «فكري» والذي أصبح هَوى قلوب الأولاد والبنات، وحين حلَّت الإجازة الصيفية التالية؛ قام «فكري» بوضع مكتبة على حائط في مدخل المبنى، وضع فيها ما يملك من كتب الأطفال الخاصة به، ووضع الأولاد والبنات أيضا قصصهم في المكتبة، وقام بكتابة اسم صاحب القصة على غلافها.

أعطى «فكري» مفتاح المكتبة لولد من الأولاد، وأعطاه مذكرة يُنظم فيها الاستعارة، ومع الأيام يزداد عدد القصص والرفوف بالمكتبة، وكذلك يزداد عدد الأولاد الذين يُودِعون قصصهم فيها.

أزعج الأمر وراب بعض الآباء؛ فقاموا بالتواجد بينهم لمعرفة سر حب الأولاد والبنات ل «فكري»!، تحاوروا معه؛ وعرفوا أنه يُعطي أولادهم روايات بريئة ومفيدة ولا يودع في أدمغتهم إلا أفكار الخير البعيدة عن التطرف والشذوذ؛ فشجعوه وشكروه.

زاد عدد الأولاد الذين تَرَقَّى مزاج هوايتهم وقل نصيبهم من الشغف بلعب «الكرة والكمبيوتر والأفلام»، تذوقوا الكلمة وأدمنوا لذَّة الخيال وهو يتحرك بحرية، فأصبحت الكلمة مثل الشكولاتة في مذاقها، عشق الأولاد وقوفهم في وسط الحلقة أمام أقرانهم وهم يروون الحكايات، وجدوا فيها متعة الفنان المسرحي حين يؤدي دوره أمام الجمهور، وبعد أن كانت أحلامهم معلقة بلاعبي الكرة وأمثالهم، أصبح مكتبة ومسرح عم فكري هما الغاية والمتعة، حتى الأولاد من خارج الشارع، كل من يسمع من صديقه أو قريبه عن عم «فكري» يأخذه الفضول فيسرع للانضمام.

في يوم من الأيام؛ شاهد الناس في الشارع «فكري» وبعض الأولاد، ومعهم «سُلم»، قاموا بتعليق يافطة على حائط في الشارع مكتوب عليها «شارع القراءة».

اشتهر الاسم بين الناس، وأفضل شهرة هي التي تأتي على لسان الأطفال، تحمس أحد المسئولين في مجلس المدينة فقام بالإجراءات الرسمية لتغيير اسم الشارع إلى» شارع القراءة».

وفي يوم كان الأولاد جالسين في المساء؛ بينما عم «فكري» يحاورهم ويحكي لهم، فإذا بهم يلتفتوا إلى يافطة تشبه تلك المعلقة بالشارع ولكنها أكبر، وقد وضعت عليها ورقة تخفي الكلمة الأولى، وظهرت فقط كلمة «القراءة»، فقال له أحد الأولاد متسائلا؛» ما هذه اليافطة يا عم «فكري»؟، وما مكتوب فيها؟

فقال له: اذهب وانزع الورقة وأرنا المكتوب»، فقام الولد ونزع الورقة فإذا بهم يجدوا اليافطة مكتوب عليها؛

«مدينة القراءة» .

فنظر لهم «فكري» مبتسمًا وقال :هذا حلمنا وسيأتي يوم تعلق فيه تلك اليافطة على مدخل مدينتنا وأنتم من ستفعلون هذا يا فخر أطفال وأولاد وبنات مدينتنا.

الفصل العاشر: الدكتورة رجاء

تعتبر الدكتورة «رجاء» من الشخصيات العامة في المدينة، شخصية مثقفة وتربوية، تُدَرِّس علوم الاجتماع بجامعة القاهرة، ويقصدها في الجامعة وفي المدينة كثير من البنات للاستعانة بها في حل مشاكلهن الخاصة، فكانت تبذل جهدها في النُصح أو التوسط لحل تلك المشاكل.

أدركت الدكتورة من واقع اختلاطها بالطلاب في الجامعة والشباب في المدينة؛ أنَّ الشباب حائر ومرتبك في حياته، ويتحمل كلاً من الحِيرة والارتباك على أمل أنَّهم في النهاية سوف يتمتعوا بالاستقرار ويتذوقوا السعادة بعد الزواج، ولكن الواقع يُخلف ظَنهم ويُخيِّب آمالهم.

في إحدى الإجازات الصيفية؛ قامت الدكتورة بإجراء مقابلات منفردة مع عدد كبير من فتيات المدينة، وسألتهن سؤالا محددا، وحثَّت البنات على الصراحة والصدق في الإجابة، سألتهن عن سبب الرغبة في المؤهل الجامعي وخصوصا حلم الطبيبة والمهندسة!، وقامت بحصر الإجابات؛ ثم قررت بذل جهدها لهدف نبيل تُزيل به عن البنات وعن المجتمع حِملًا ثقيلًا.

توجهت الدكتورة لوجهاء المدينة ونُخبتها، وقامت بنشاط مكثف فردي وجماعي لإقناعهم بفكرتها، وفي خطابها قالت لهم:

«وجهت سؤالا لعدد كبير من البنات، عن الدافع للتسابق للحصول على المؤهل الجامعي!، خاصة أنَّ فرص العمل بالمؤهل للبنات تكاد تكون معدومة، فكان الجواب المشترك بجانب إجابات أخرى متفرقة هو؛ الحصول على فرصة أفضل للزواج، وقليل منهن من ذكرت أنها ترغب في العلم وحده كهدف، ولكن مع ذلك اعترفن بأنهن أيضا يَضعن في الاعتبار المؤهل بجانب العلم كفُرصة للزواج، ولكن من المفارقات المؤلمة أن أغلب البنات بعد الحصول على المؤهل الجامعي يَجدن صعوبة في الحصول على فرصة للعمل، فالمهندسات والمحاسبات والمدرسات أغلبهن تزوجن وأصبحن ربات بيوت، لأن البطالة منتشرة وفرص العمل أغلبها للرجال على الرغم من ندرتها، كما أنَّه لا أمل في تغير الحال في المستقبل القريب!

ولو قمنا بضم نتيجة هذا الاستبيان إلى حقيقة نلمسها جميعا، وهي أنَّ نسبة الطلاق بين الزيجات الحديثة مرتفعة بدرجة

حادة، ونظرا لأنَّ أغلب الأزواج مؤهلات عليا، فهذا يعني أنَّ المؤهل الجامعي لم يكن أداة مساعدة على النجاح في الحياة الزوجية، وحين أتحدث من منطلق تخصصي واختلاطي بعدد كبير من الزوجات الشابات، أؤكد أن هناك زِيجات كثيرة هَشَّة وتعيسة وفاشلة ولكن لم يُعلن هدمَها بعد.

أولادنا وبناتنا يدخلون الحياة الزوجية بلا أدوات كافية للنجاح في أمر جوهري مثل الأسرة التي هي نواة المجتمع.

ولهذا اقتراحي بأن تكون مدينتنا هي الرائدة في بناء مدرسة تلي المرحلة الإعدادية، مدرسة ثانوية للفنون والأسرة، هذه المدرسة للبنات فقط وبالجهود الذاتية، وتهدف إلى اكتساب مهارات فنية تكون لهن أداة في تربية أبنائهن وإدارة الحياة الأسرية بتناغم، فالفنون تُغذي الإنسان بإحساسه وخياله وعاطفته.

في الماضي في إنجلترا وأوروبا؛ كان هناك مصطلح «Accomplished Girl»، وهو يعني فتاة مؤهلة بفنون ومهارات تصب في حياتها كأم وزوجة، وكان هذا من نصيب بنات النبلاء والطبقة العليا، حيث يُجلب إلى القصر مدرسون للموسيقى والإتيكيت والرسم والتطريز وبقية

الفنون لتعليم وتدريب الفتاة، مَدرستنا سوف تكون خاصة بتلك الفنون ويضاف إليها تأهيل البنت ثقافيا وتربويا لتُدير أسرة، فتتدرب وتتثقف على كل ما يَخص الزوج والأولاد وإدارة البيت، فتتسلح بمؤهلات تنفعها في الحياة الزوجية وفي نفس الوقت يكون لها نصيب من الحِس الفني وانطلاق الخيال.

لم يكن الأمر سهلا؛ فقد استغرقت منها تلك الاتصالات خمس سنوات متواصلة؛ حتى تمكنت من الحصول على مؤيدين وداعمين ومتبرعين لهذا المشروع، وهذه معجزة!؛ فالناس لا يفهمون إلا التبرع لمعهد ديني يضمه الأزهر، ولكن يصعب إقناعهم أن مدرسة بهذه المواصفات وبهذا المنهج؛ لا يقل ثوابها عن ثواب التبرع للمعاهد الأزهرية، وهذا هو السر في أنها استغرقت خمس سنوات حتى أنجزت هذا العمل البطولي.

وبعد محاولات كثيفة، حصلت على موعد مع وزير التعليم، عرضت عليه المشروع، ونظرا لأنه بالجهود الذاتية؛ فما على الوزارة سوى الموافقة ودعم المدرسة بكل ما يلزم من طاقم إداري وتعليمي، وأن تصبح تلك الشهادة معترف بها رسميًا.

ومن حسن الحظ أن هذا الاقتراح وافق مناخا سياسيا يدعم هذا الاتجاه، وتم بناء المدرسة في سنوات قليلة وكانت الأولوية للالتحاق بالمدرسة لفتيات المدينة.

مرت السنون؛ وكوضع طبيعي التحق بهذه المدرسة الفتيات اللاتي اضطرتهن الظروف لها، ولكن مع توالي الدُفعات التي تخرجت ومع الحفلات التي تقيمها المدرسة ويُعرَض فيها أنشطة البنات الفنية والثقافية والمَهارية أمام الجمهور، بدأ الناس يدركون مدى القدرات التي تكتسبها البنات وكيف أنهن تميزن عن بقية البنات بميزات خاصة لا تتوفر في فتاة الجامعة.

وكانت تلك البذرة التي زُرعت في المدينة لكي تكون مثالًا ونموذجًا للمدن المجاورة لكي يقتدوا بهذا العمل النبيل والصالح.

والأمل في أن ينتشر هذا النموذج على حساب مدارس التجارة والصنائع للبنات؛ نظرا إلى أن خريجي هذه المدارس الفنية من الفتيات لا يحصلن على الوظيفية بسهولة، بينما الحاجة شديدة اليوم لفتاة مؤهلة للحياة الزوجية وتملك المؤهلات التي تبني الأسرة بناءً يصب في بِنية المجتمع.

الفصل الحادي عشر: عقلية نادرة

جلست «أمينة» في الشرفة تحتسي الشاي الذي تسربت إليه البرودة بينما غمرها الاندماج في الذكريات.

كم تُحْفر أحداث الطفولة في أعماق الأطفال؛ بينما البالغون غافلين عنهم، لذلك يكبر كثير من الأطفال وتكبر معهم عُقدة لا تزول، عُقدة تنغرس فيهم بسبب اندماجهم في أحاديث وأحداث الكبار، فالأطفال هم آذان مُصغية بكل الجوارح.

كان انفعال «أمينة» بخالتها وتعلقها بها هي عُقدة الطفولة، كانت خالتها أستاذة في مركز البحوث ومتزوجة من زميل لها بعد قصة حب مثيرة؛ حفظتها «أمينة» من كثرة حكايات خالتها لها، لم تستطع خالتها الإنجاب، فكان نصيب «أمينة» من فائض مشاعرها غامرا؛ فنالت من حنان خالتها العَطْشَى للأمومة أكثر مما نالت من حنان أمها الرزين، كان زوج خالتها رجلا مثقفا دمث الأخلاق، غلبه حبه لزوجته وطبيعة شغله على حَنينه إلى أن يكون أبا، ورغم إلحاح زوجته عليه أن يتزوج لينجب؛ إلا أنه رفض ووعدها بالإخلاص مدى الحياة، ومرت السنون وتقدم العمر بالزوجين؛ فتسرب

الإحساس بالفناء إلى الزوج، فمع ضَعف الجسد وتقدم العمر تَضعف النفس، ثم يتحول الضعف النفسي إلى فَزع، فَزع من فوات الأوان، فتزوج وأنجب الرجل الخمسيني طفلا، ولما لم تتحمل الزوجة هذا السهم الذي غاص في كيانها في آخر عمرها؛ طلبت الطلاق ثم عاشت سنوات قليلة في ألم وماتت بعدها متحسرة.

تشرَّبت «أمينة» كل هذه التجربة وسقطت عليها الدموع الغزيرة المنهمرة من خالتها، وأصبحت تلك القصة هي عقدة حياتها، وكما يقول المثل العامي «اللي يخاف من العفريت يطلع له».

لم يكن العفريت في «أمينة»، نعم هناك بعض العوائق التي تعترض قدرتها على الحمل ولكن العلم تقدم والحلول متاحة، مع ذلك فالعفريت كاملا كان في زوجها، وبعد فحوصات طويلة كان القرار هو إجراءات معقدة للحصول على طفل. هل تطلب «أمينة» الطلاق مبكرا ولا تتأخر مثل زوج خالتها؟ من يضمن لها أن تتزوج؟ من يضمن أنها سوف تُنجب؟ ومن يضمن لها زوجا مثل زوجها الحنون والكريم؟ هل تغامر فتكون قصتها مختلفة عن خالتها؛ ولكن تنتهي إلى

مأساة بقصة مختلفة؟، مرت أيام طويلة و»أمينة» غارقة في أفكارها وتقاسي مخاوفها.

وفي صباح يوم كانت جالسة في الصالون؛ بينما «سعاد» الخادمة التي تساعدها في أعمال المنزل تشتغل في المطبخ، نادت عليها أن اتركي كل شيء وتعالي نتحدث، كانت سعاد أرملة شابة متوسطة الجمال، لديها ثلاث بنات، مات زوجها مبكرا فتغير الحال ولجأت للعمل في البيوت لتنفق على بناتها، عَرَضت عليها «أمينة» أن يتزوجها زوجها وتسكن هي وبناتها معهما في أسرة كبيرة، كان العرض مذهلا ومفاجئا؛ ولكن لم يكن قَبوله صعبا، فالأصعب كان قد مر بنجاحها في إقناع زوجها بالفكرة المجنونة.

أحمد: أريد ابنًا من صُلبي، لماذا أربِّي غُرباء؟

أمينة: دعك من وهم الابن من الصلب، فوراء هذا السراب تنكَّدت حياة كثير ممن سبقونا، نحن لن نُعاند إرادة الله، الإنسان يحتاج أن يحيا حياة طبيعية كما فطره الله، فالفطرة هي الأسرة وأن يعطي الأب والأم حنانا ورعاية؛ فينالوا برًا وإنجازًا يتمثل في أبناء صالحين، وهذا ما ينقصنا، وهذا هو الحل.

أحمد: ولكنها أقل مني تعليميًا واجتماعيًا، وأنتِ تفرضيها عليّ!، من أدراك أنني أتقبلها زوجة؟

أمينة: أما عن التعليم والمستوى الاجتماعي؛ فيكفي أننا سوف نُرقّيهم مع الأيام تعليميا واجتماعيا، وهذا عمل نبيل، وأما عن تقبلك!؛ ألا يكفيك أنني ضغطت على نفسي ونفسيتي لأتقبل هذا الحل المجنون؛ ثم أنت تريد مني أن أختار لك عروسا تكون حلوة في عينيك؟ هل تريد أن تختار يا عريس! آه يا نمرود!

لم يتمالك «أحمد» نفسه من الابتسام، فبالفعل هي على حق.

وتم الزواج المثير والغريب على المجتمع، ونالت الأسرة الكبيرة ما أرادت من صالح لها، مارست «أمينة» وزوجها الحياة الطبيعية وسط البنات، ونالت «سعاد» حياة زوجية هانئة وحفظت لأمينة جميلها وأصرت أن تظل تتحمل الجزء الأكبر من المهام في البيت كما كان من قبل، ونال أولادها حنانًا وأمانًا وتعليمًا.

ومرت الأيام ولم تتسرب أي غيرة أو ندم لأمينة، في البداية انهمر على «أمينة» وزوجها استنكارا وهجوما واتهاما عنيفا،

انتقدها الأقربون بحدة أكثر من الأغراب؛ ولكن رغم أن العاصفة كانت عنيفة ومتتالية في بدايتها؛ إلا أنَّ المدهش أنه بعد تقديم هذا النموذج ورؤية الأسرة وهي سعيدة، تبعهما أناس آخرون بحلول مشابهة ومختلفة؛ وتُحقق نفس النتيجة التي تتغلب على وهم فيلم؛ «جري الوحوش».

الفصل الثاني عشر: اليد واللسان والقلب

في صلاة الجمعة، اكتظ المسجد في الداخل والخارج بالرواد، فالخطيب الشاب أصبح أمل الناس في إعطاء قيمة لخطبة الجمعة، ورغم أنه مُقيد كأقرانه من الخطباء؛ إلا أنه لا يدَّخر جهدا في النفاذ من أي ثغرة يصل بها لضمير الناس، فيستدعي من الدين ما يُصلح الحياة ويوحِّد الجهود، فالناس لم يتعلموا كيف يعملوا معا. قرأ الخطيب الشاب الورقة وهو ينظر إليها ولا ينظر إلى الناس، ولما فرغ منها؛ نظر إليهم طويلا دون حديث.

فزاد فضول الناس لسماع ما سيقول وأطرقوا الآذان، تحدث عن تغيير المُنكر باليد واللسان والقلب، وأن من يملك اليد؛ لا رخصة له في اللسان، ومن يملك اللسان؛ لا رخصة له في القلب، ومن يملك القلب فقط؛ فيا خيبته وخسارته إنْ ضل قلبه ومال للباطل.

ثم قال : «ومع ذلك، سوف أطالب الجميع؛ بخطوة صغيرة لتغيير المنكر؛ هي باليد واللسان والقلب، ويستطيع الكل فعلها. طلب منهم جميعا، كي يفلتوا من ذنب المشاركة في الإثم

والسكوت عنه؛ بأن يقوم كل واحد من الناس بكتابة شكاوى متوالية ولا تنقطع، حتى لو كُتبت «بدون توقيع»، يرسلها للمسئولين يشرح فيها الفساد الفردي الذي عاناه أو عاينه، ومن لا يخشى على نفسه من نتيجة فضح الفساد؛ فعليه بوسائل التواصل الاجتماعي؛ ليكتب شهادته ويُسجل تجربته.

وقال: «أناشدكم جميعًا؛ أن لا تَمَلّوا من كتابة الشكاوى، فهي ستشهد لكم أمام الله أنكم تتبرؤون من الظلم، ولا أدعوكم إلى ما فوق طاقتكم، لا تعتادوا الفساد، أخرجوه من دائرة طبائع الأشياء، ومن لن يفعل؛ فأنا ألعنه وأدعوا عليه أن يزيده الله شقاءً فوق شقاء، وضلالاً فوق ضلال، لأنه لا عذر له».

سرت في المدينة هذه الدعوة اليسيرة على الناس والمؤلمة للفاسدين، وامتلأ البريد بخطابات الشكوى من الفساد والفاسدين مع ذكر الأسماء والحوادث، ولم يَكسل عن هذا العمل مسلم أو مسيحي، رجل أو امرأة.

وهكذا الناس؛ في حاجة لمن يبين لهم وسعهم، شرط أن يرفق بهم في تكليفهم، وها قد كلّفهم الخطيب بما في وسعهم، وما يريح ضميرهم.

بعد تلك الخطبة؛ لم يكن هناك بُد من القبض على الخطيب الشاب، فقد تجاوز بدعوته تلك كل الخطوط الحمراء.

فشعب يشكو يعني شعب يصحو، حتى لو كانت شكواه باسم مجهول؛ فمن يضمن أنَّ بذرة الإيجابية تلك لن تصبح أشجارًا وثمارًا تطرد كل خبيث وفاسد؟

واختفى الخطيب الشاب عن صلاة الجمعة، وفوجئ الناس بخطيب يحل محله، أصابهم النُعاس في الخطبة وأمات الخطيب عليهم دينهم وحياتهم؛ «وعادت ريما لعادتها القديمة».

فوجئت رئاسة الوزراء وكل الوزارات بسيل من الشكاوى الخالية من التوقيع؛ تنادي بالإفراج عن الخطيب الشاب، وصل الأمر إلى أن الناس كانوا يستيقظون من نومهم ليكتبوا عدة شكاوى يرسلونها في كل الاتجاهات، فهذا هو الدرس الأخير للخطيب الشاب، فلا بد من أن يُذاكروه جيدا ويطبّقوه كما أوصاهم، ثم تبع هذا النشاط ظاهرة غريبة.

فقد جاءت بعض الشكاوى بتوقيع صريح، وبمرور الأيام يزيد عدد هؤلاء الذين يوقِّعون باسمهم. « ويا سلام سلم الشعب بيتكلم».

لم يزعج السلطات مثلما أزعجتهم تلك الوقاحة، فالبعض نزع ثِقل الخوف من على كاهلهم، وربما يزيد عددهم وخطرهم. في يوم أثناء درس الأحد؛ قام «القسيس» بكتابة شكوى باسمه؛ ثم ناشد الحاضرين للقُدَّاس أن يشاركوه، وقَّعوا شكوى جماعية بالأسماء تناشد السلطات الإفراج عن الخطيب الشاب. وكانت نكتة ونادرة وضربة قاسمة؛ أن يطالب «بطرس وجورج» بالإفراج عن الخطيب المسلم.

وفي الجمعة التالية حدث تطور غريب ومفاجئ، لم يحضر في مسجد الخطيب الشاب أحد، لجأ الناس للمساجد الأخرى، وتركوا المسجد خاويا، وكانت تلك الحادثة هي حديث المدينة، وهنا صدر التساؤل الذي لم يخطر ببال أحد أن يدور بين الناس، هل يتطور الأمر فيقاطع الناس صلاة الجمعة في كل المساجد؟، وهنا لم تستطع السلطة أن تصمد، فهذا منحدر خطير.

أفرجوا عن الخطيب الشاب، لم يمنعوه من الخطابة؛ لأنهم لا يريدون أن يدخلوا في نفس الدائرة من الشكاوى، وربما تنمو دوائر أخرى لم تخطر بالبال، وخافوا أن يتسبب العِناد في موجة تالية وأقوى من الشكاوى، وموجة وراء موجة قد تتعرض الأسوار للتصدع والهدم.

وفي خطبة الجمعة، وقف الخطيب الشاب، وتلى خطبته المكتوبة ثم نظر إلى الناس، وقال :أيها الناس، أحفظوا عني : سلامة المواطن قبل سلامة الدولة. كرامة المواطن قبل كرامة الدولة.

حرية المواطن لا يساوم عليها. الدين حرية. الدين كرامة. الدين عدل.

لم ينقطع الزوار عن «الخطيب الشاب» لتهنئته بالسلامة. ولم يعرج على قص تفاصيل ما حدث له في هذه الغيبة. لخَّصها في كلمة واحدة؛ الإهانة.

خرجت نُكتة من أحد الحضور، قال: «نحن كلنا واقعون في الإهانة». فهي وباء شعبي، والأولى أن نُنشئ حزب؛ «لا للإهانة»

ضحك الحضور؛ ولكنها كانت كطاقة نور أضاءت في ذهن الخطيب الشاب. في مكتب المحافظة كان يجلس مجموعة من الشخصيات العامة بالمدينة ومعهم «الخطيب الشاب»، طلبوا مقابلة المحافظ، في النهاية قابلهم وشرحوا له أنهم يريدون تكوين جمعية، ظن الوزير أنهم يريدون جمعية

خيرية، فهذا هو العُرف من زمن سحيق، لكنه دهش كثيرا عندما قالوا أنهم يريدون الموافقة على تسجيل جمعية بعنوان «لا للإهانة»، شرحوا له أنها جمعية سِلمية، تريد نشر الوعي بين الناس، فالجمعية تَعتبر أن المصري لا يجب أن يُهان بعد اليوم، وهذا الهدف النبيل يحتاج جهدا كبيرا في الناس، جهدا لدفع الإهانة وجهدا للتوعية برفض الإهانة.

«الفقر إهانة، المحاباة إهانة، القهر إهانة، الذل إهانة، الرشوة إهانة، الفساد إهانة، التزوير إهانة... نحن نريد أن نكافح الإهانة في النور... نريد أن نرفض ونقاوم ونقبل في العلن».

رغم أن الوزير تفاهم مع الفكرة؛ إلا أنه اعتبر أنها خيالية. لكن نظرًا لأنهم شخصيات محترمة ولها حيثية؛ أخبرهم أنَّ الجمعيات تحتاج تصريحات وموافقات عديدة، وعدهم أن يبذل جهده لتسهيل تلك المبادرة المدهشة، غادروا وهم يعلمون أنها محاولة لن تنجح بسهولة، بل هي أقرب للمستحيل.

مرت شهور ولم تُفلح كل المطالب والطلبات الإجرائية الرسمية في نيل الموافقة، وحدثت اتصالات من السلطة معهم لحثهم على التخلي عن الفكرة، وعندما يئس

«الخطيب الشاب» من نيل الموافقة، وأدرك أنَّ الأمر يحتاج سياسة النفس الطويل، ويحتاج البناء من أسفل. قام بنشاط مكثف مع الناس وحثَّهم على أن تكون تلك هي الكلمة التي لا تنقطع عن لسانهم وعن فكرهم، وليس شرطا أن يحتضنها حزب ولا جمعية، نحن الذين سوف نُسكن ونَطبع هذا المفهوم في النفوس، لا داعي لتصريح ولا إذن، سوف أجعلها في كل خطبي ومجالسي مع الناس، ولن أنتقل عنها حتى تختفي الإهانة من مجتمعنا، وأول خطوة أن نتوقف عن تبادل الإهانات بيننا، هذا دوري؛ فليفتش كل منا عن دوره، ولا يجب أن نَكُفَّ حتى نصل إلى أن يرفض الناس ما كانوا يقبلوه بالأمس، وأن يتربى الكل ثانية على هذه القيمة. وأصبح حديث المدينة كله بين الناس عن «الإهانة».

أصبح «فكري» وأطفاله جميعا يؤلفون ويتداولون قصصا عن الإهانة، وكيف مقاومتها سلميا، ومعنى الكرامة، ومن هو الكريم، ومن هو المُهان!، يقف الصبي في المنتصف، ويحكي للناس رواية «الإهانة» والكرامة التي أصبحت كل الروايات اليومية بعنوانها.

قام الشباب الذي ناهض الدروس الخصوصية بتخصيص مقدمة قبل أي درس عن الإهانة، واشترك الجميع في

تلك الموجة والتيار؛ بما فيهم الآباء الذين أجبروا المدير والمدرسين على الالتزام في مدرستهم.

قام بعض الشباب الموهوب بتأليف وتلحين نشيد «لا للإهانة» وأصبح على لسان الجميع، وفي حفلات الزفاف وأشباهها كان الحضور جميعا يغنون هذا النشيد.

حتى الأستاذ «سرحان» الذي كان بالأمس ممتلئا بالغضب من الأولاد الذين أجبروه على الالتزام في المدرسة، اليوم وجد نفسه يمتلئ سرورا لهذه الحيوية التي سرت في المدينة، فمن هو الأحمق الذي يقبل الإهانة، شارك كل من المسلم والمسيحي، الرجل والمرأة، أصبح الكل في واحد.

وأصبح الطفل عندما يشتمه أباه جادا أو مازحا؛ يرد كما تَعلّم: «لا للإهانة يا أبي»

والتلميذ في المدرسة حين يوبِّخه المدرس بكلمة لا تليق؛ يقول له: «أستاذي العزيز؛ لا للإهانة»

وفي المصالح الحكومية والعيادات والشركات؛ عندما يقوم أحد بتخطي دوره، ينادي كل من في المكان في هدوء وثقة وسلام؛ «لا للإهانة» فيتراجع وهو يبتسم موافقا.

وسرعان ما سرت الموجة في سلام بين الجميع، وها هي الإهانة تضعف وتولي ظهرا وتكاد تتلاشى.

وشارك «مخلص»...

هل تذكرون مخلص؟ ... للأسف لا يعرفه سوى أنا وأنتم. عرف الجميع عدوه.

في الماضي كانت تُعرض كتب وأفلام قصيرة بعنوان «اعرف عدوك»، تشير إلى «إسرائيل»، ولكن الناس بالوعي، أدركوا أن إسرائيل جاءت من ثغرة الإهانة؛ وهزمتهم بالإهانة وأذلتهم بالإهانة.

ولو رفضوا من البداية الإهانة؛ لما بقيت إسرائيل إلى اليوم، فالشعب المُهان يستحق كل بلاء.

ولا نعرف ماذا سيحدث في الغد القريب، ولكن مثل تلك المدينة التي تزخر بمثل هؤلاء الذين؛ «لم يفعلوا مثل الناس»

ولم يقعوا في أسر الغفلة المجتمعية، فابتدعوا حلولا وأعمالا عبقرية خارجة عن المألوف وتصب في صالح الناس، هذه المدينة لا يمكن إلا أن تنال ما تستحق، فقد استجابت إلى الأمر الإلهي بتغيير ما بأنفسهم.

شعرت السلطة أن الجسد الاجتماعي الذي تحكمه أصبح ينمو، مثل الطفل ينمو فتضيق عنه ملابسه ويقضي زمناً يشعر بالضيق دون أن يجد له تعليلاً، حتى يصل إلى النتيجة الطبيعية، بأن تلك الملابس ما عادت صالحة له وتوجب خلعها، أو تجديدها وتكبيرها لتناسب الجسد الجديد الناضج الواعي والبالغ.

ولا يزال الجميع ينتظر. وهم في ثقة من الجائزة.

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ)[الرعد:11]

* * *

المحتويات

قبل أن تقرأ 7

إكرام الأرملة... دفنها 11

الثور... والثورة 21

السجين النبيل 27

الفـــــخ 35

القهر 43

المغتصبون 49

ترياق الفزع 63

على نظافة 81

مدينة المثقفين والنخبة 85

ببســـاطـة 89

إكرام الأرملة دفنها

أيمن جبر

مجموعة قصصية

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

نظر الساحر في عيون الناس فسحرهم؛ عدا من أغمض عينيه.

عزف الساحر على الناي للناس فسحرهم؛ عدا من أغلق سمعه.

أصبحت الحواس مُعطّلة ومُضللة وأسيرة للسحرة.

ومدينتنا المسحورة؛ يندر فيها من يملك وعيًا.

وفي قصتنا أشخاص؛ أغمضوا أعينهم وأغلقوا سَمعهم واحتفظوا بوعيهم؛ ولم يفعلوا مثل الناس.

وهؤلاء هم الأمل في إنقاذ الناس.

النخبة